مكتبة الأسرة 2002

مهرجان القراءة للجميع

روائع الأدب العالمي للناشئين

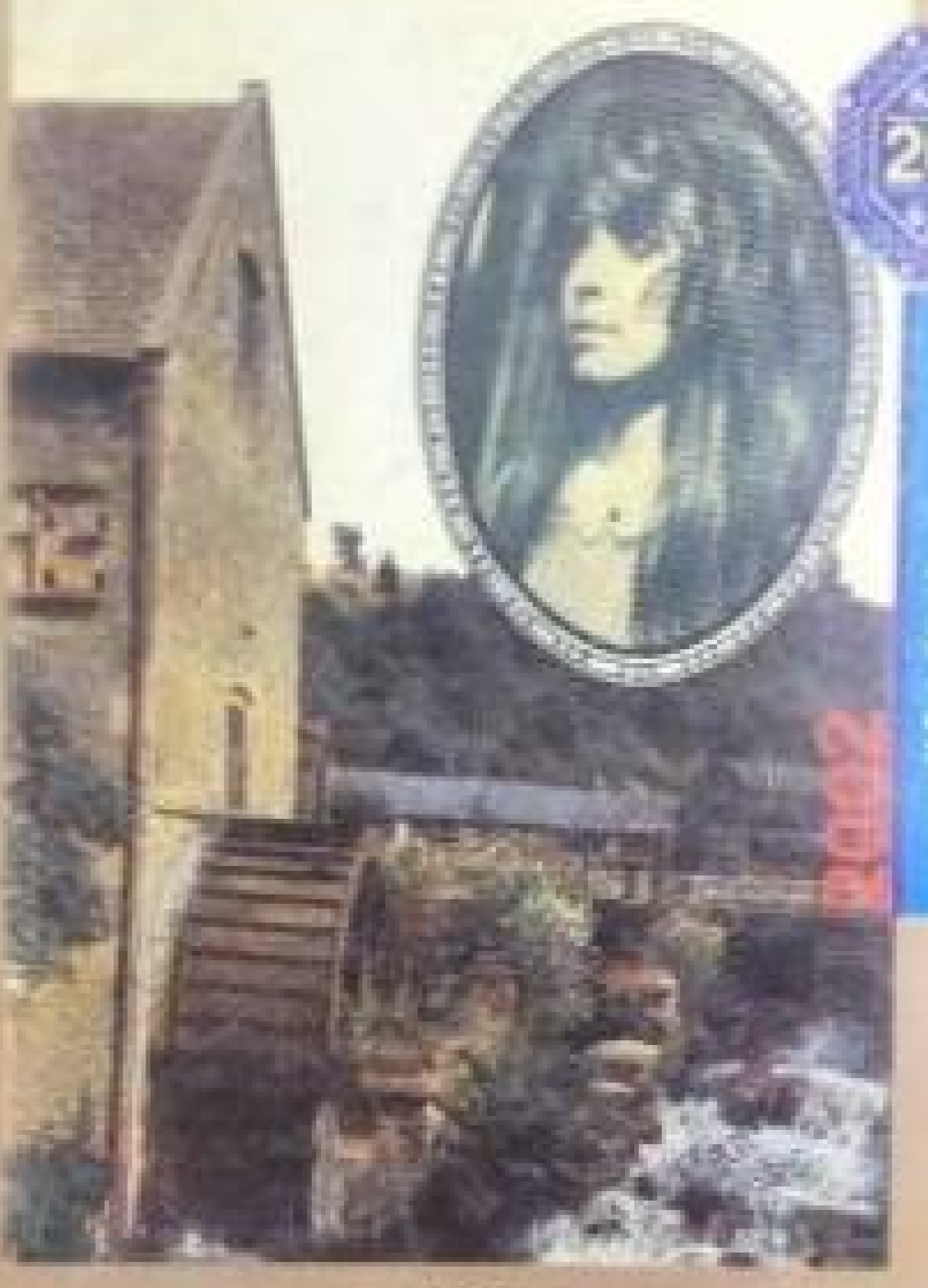

جورج إليوت / ترجمة صبري الفضل

طاحونة على نهر فلوص

طاحونة على نهر فلوص

طاحونة على
نهر فلوص

تأليف : چورج إليوت

ترجمة : صبرى الفضل

مراجعة : مختار السويفى

مهرجان القراءة للجميع
للطفل. للشاب. للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(روائع الأدب العالمى للناشئين)

طاحونة على نهر فلوص
تأليف: چورچ إليوت
ترجمة: صبرى الفضل
مراجعة: مختار السويفى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ :
صبرى عبدالواحد
المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيبًا فى المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص. ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيريًا رائعًا على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكانًا هذا العام فى «مكتبة الأسرة».. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ سوزان مبارك..

د. سمير سرحان

هذه ترجمة لرواية

The Mill on The Floss

By: George Eliot

رئيس التحرير: مختار السويفى

مقدمة

قضت مارى آن ايفانز (١٨١٩ ـ ١٨٨٠) سنواتها الأولى فى بيت ريفى فى إحدى الاقطاعيات الكبيرة فى واروبكشاير التى كان والدها وكيلا لها، والتى أصبحت فيما بعد مسرحاً لعديد من رواياتها. اضطرتها الظروف تحمل مسئولية الحياة وهى فى سن صغيرة.

وفى عام ١٨٥١، انتقلت إلى لندن حيث أصبحت مساعدة فى تحرير صحيفة وستمنستر ريفيو، فالتقت بالعديد من الكتاب والفلاسفة، وقامت بترجمة بعض الكتب الفلسفية عن اللغة الألمانية.

ولم تبدأ الكتابة فى مجال الرواية إلا فى أواخر الثلاثينات من عمرها، عندما اتخذت اسم «جورج إليوت» الذى اشتهرت به، وذلك بعد زواجها من جورج هنرى لويس. وكان يعتبر زواجا روحانيا وعقلانيا. وعاشا سويا فى سعادة حتى وفاته عام ١٨٧٨. وهو الذى أخذ بيدها وشجعها وأثر فى كتاباتها.

كتبت جورج إليوت بشكل أساسى عن الحياة الريفية الإنجليزية، وأخذت تسبر الأغوار فى المشاكل الأخلاقية والاجتماعية للقرى وأهل الريف. وأرادت من كتبها أن تحقق هدفا أخلاقيا جادا عن أن تكون مجرد نافذة للترفيه. وأصبحت العديد من رواياتها من الكلاسيكيات.

ومن أهم أعمالها «مشاهد من الحياة الكهنوتية»، ١٨٥٨ ، الذى دل على وصول عبقرية مبدعة حقيقية لكاتبة جديدة. وأعجب به ثاكيرى، وديكنز، وانتونى ترولوب ومسز جاسكيل، وهو عبارة عن مجموعة قصص قصيرة، و«آدام بيد»، ١٨٥٩ وهى أول رواية لها عن الحياة الريفية الإنجليزية، وفيها تقول على لسان آدم:

«إنها ليست الأفكار التى تجعل الناس تقوم بعمل الشيء الصحيح بل الأحاسيس»، «وطاحونة نهر فلوس». ١٨٦٠ ، التى سكبت فيها بغزارة تجاربها الأولى. وهى عظيمة فى شخوصها وفى وصفها التصويرى. «سايلاس مارنر»، ١٨٦١ ، التى تزخر برقة الخيال والفكاهة والبساطة القوية للابتكار، فجعلت منها قصة مثالية، و«ميد لمارش» ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ ، التى تعد أجمل أعمالها ويعتبرها بعض النقاد أعظم رواية للعصر الفكتورى، ثم رومولا، ١٨٦٢ ـ ١٨٦٣ ، و«فيليكس هولد المتطرف»، ١٨٦٦ ، و«دانيال ديروندا»، ١٨٧٦ .

وجورج إليوت تميل فى تصويرها للحياة الإنسانية إلى تأكيد حرية الفرد فى اختيار مصيره، فتذهب إلى أن الشخصية هى القدر أو المصير.

ويرى النقاد أنها وسعت امكانات الرواية بإدخال موضوعات جديدة إليها وحاولت النفاذ بدرجة عميقة إلى الشخصية الإنسانية وتحليلها، ومدى ارتباطها ببيئة الإنسان وقدره. كما اهتمت بالشكل والبناء فى رواياتها، فنجد الفرق جليا بين أعمالها، من ناحية التصميم العام والترابط بين الأجزاء، وبين أعمال من سبقها من الروائيين فى العصر الفكتورى. ويتضح ذلك من التنظيم الدقيق وبناء الشخصيات وعرض الأحداث والمشاهد والصور البلاغية، ووجهة نظر الكاتبة. فمما لاشك فيه أن فلسفتها تظهر على اتجاه الأحداث وتطور الشخصيات والصور التى تستخدمها لنقل رؤيتها للحياة.

والآن، هيا بنا أيها القارئ العزيز مع ماجى الذكية، بطلة الرواية، ذات الشخصية المستقلة فى طفولتها وشبابها كثيرة الشبه بحياة جورج إليوت نفسها، حيث تبدى الكاتبة مقدرة فذة على تنظيم مادتها الغزيرة حول نظرة فلسفية للحياة الاجتماعية فى طبقة البرجوازية الصغيرة فى الوقت الذى كانت بعض الأزمات الاقتصادية تطيح ببعض الأسر، وترفع غيرها وسط خضم مضطرب من العوامل الحضارية والاجتماعية والنفسية.

المترجم: صبرى الفضل

فصل ١

طاحونة دورلكوت

كان السهل عريضا ـ حيث يسرع نهر فلوص المتسع بين ضفتيه الخضراوين إلى البحر.. وعند مصب النهر تقع بلدة سانت أوج الصغيرة.. وتأتى المراكب هنا محملة بالخشب أو الفحم، أو البذور التى يستخرج منها الزيت، وأشرعتها الحمراء الداكنة يمكن رؤيتها من بين الأشجار. وكان ملاصقا للبلدة ذات الأسطح الحمراء نهير صغير يسمى الريبل يصب فى نهر فلوص. وكم هو جميل النهير الصغير بمياهه الداكنة ذات الألوان المتغيرة دائما.

أنظر إلى تلك الأشجار الكبيرة التى تمتد فروعها وتتدلى على النهير...

وهنا الجسر الحجرى..

وهذه هى طاحونة دورلكوت.

حتى فى هذه الأمسية الباردة من شهر فبراير، حيث الأشجار بلا أوراق فالطاحونة تسر الناظرين. ومنزل الطحان المريح يبدو فى قدم الأشجار التى تحميه من ريح الشمال، واندفاع الماءتحت عجلة الطاحونة مثل ستارة عظيمة من الصوت تحجب الإنسان عن العالم الذى خلفها.

وفتاة صغيرة تقف قرب حافة الماء، وكلب أبيض واحدى أذنيه بنية اللون يقفز بجانبها. إنها تراقب عجلة الطاحونة التى لا تكل ولا تمل وهى تنثر رذاذها الماسى من الماء أثناء دورانها لطحن الحب.

إنه وقت عودتها للمنزل، حيث توجد نار ساطعة ترحب بها، وضوؤها الأحمر يشع عبر النافذة تحت الشحوب المتوغل فى السماء.. وأمها وأبوها، مستر ومسز توليفر، يجلسان هناك بجانب النار يتحدثان.

يقول مستر توليفر:

ـ ما أريد، ما أريد هو...

* * *

فصل ٢

مستر توليفر يقرر بخصوص توم

تعليم جيد:

قال مستر توليفر:

ـ ما أريد، ما أريد هو إعطاء توم تعليماً جيداً، تعليماً يساعده على الحياة. إن المدرسة التى هو فيها الآن كافية إذا قصدت أن أجعل منه طحاناً أو مزارعا، لكنى أحب توم أن يكون «جنتلمان». أريد منه أن يستطيع الحديث والكتابة بشكل جيد، وسيساعدنى ذلك عندما أتعامل مع المحاكم. أنا لا أريد أن أجعل من الولد محامياً فعلياً، لأنى لا أريده وغداً. أحبه أن يكون رجل أعمال أو مقيم أراضى.. مثل ريلى. إن ريلى ينظر فى وجه المحامى واكيم بصلابة مثل قط ينظر لآخر، إنه لا يخاف من واكيم.

قالت مسز توليفر:

ـ حسن، أنت أدرى منى بذلك. لكن ألم يكن من الأفضل أن أذبح دجاجتين سمينتين وأدعو الخالات على العشاء؟ ثم تسمع ما تقولاه أختاى مسز جليج ومسز بوليت بخصوص ذلك.

قال مسز توليفر:

ـ يمكنك أن تذبحى كل دجاجة فى الباحة، إذا أحببت يا بيزى، لكنى لن أسأل نصيحة أى خالة أو خال بخصوص ما أفعله مع ابنى.

قالت مستر توليفر:

ـ كيف تتحدث هكذا يا مستر توليفر!..

لكنك دائما تتحدث بشكل محترم عن عائلتى.. إنه من حظ طفلىّ أن يكون لهما خالات وأخوال أغنياء. ومع ذلك، إذا كان توم سيذهب إلى مدرسة جديدة، أحب أن يذهب إلى مكان حيث أستطيع أن أغسل ملابسه. وعندما يأتى صندوق ملابسه، أستطيع أن أرسل له كعكة أو بعض التفاح. سيسعده الحصول على طعام إضافى، سواء كانوا يطعمونه جيدا أم لا. إن طفلىّ يستطيعا الأكل أكثر من معظم الأطفال.. والحمد لله.

قال مستر توليفر:

ـ حسن، حسن، إننا لن نرسله بعيدا على كل حال. لكن ما أفكر فيه هو كيف نعثر على المدرسة المناسبة، لنرسل اليها توم.

وتوقف مستر توليفر ودس يديه فى جيبه وكأنه يأمل فى العثور على اقتراح ما، وأخيرا قال:

ـ أعرف ما سأفعل سأتحدث مع ريلى فى ذلك. إنه سيأتى غدا لفض النزاع على الجسر. إنه قد تعلم هو نفسه. وأُريد توم أن يكون رجلا مثل ريلى، رجل يمكنه الحديث بشكل جيد، ولديه معرفة جيدة بالأعمال أيضا.

ثم توقف ثانية، واستمر قائلا:

ـ إن ما أخشاه أن توم ليس لديه العقلية المناسبة. إنه بطئ قليلا. إنه مثل عائلتك يا بيزى.

قالت مسز توليفر:

ـ نعم، هو كذلك. إنه يأخذ ملحا كثيراً على طعامه، أخى كان يفعل ذلك وأبى أيضا.

قال مستر توليفر، وهو يهز رأسه بجدية:

ـ فتاتنا الصغيرة، ماجى، تشبه أكثر جانب عائلتى أنا.

إنها أسرع من توم. ومهارتها زائدة بالنسبة للنساء. والمرأة الزائدة في مهارتها مثل الشاة ذات الذيل الطويل.. إنه لا يضيف من قيمتها.

قالت مسز توليفر وهى تنهض ذاهبة إلى النافذة:

ـ كل مهارتها تجعلها عفريتة، لا أستطيع أن أحتفظ بثوب نظيف لها أزيد من ساعتين. أنا لا أدرى أين هى الآن، وها قد حان وقت الشاى. آه، لابد أنها تغدو هنا وهناك بجانب المياه مثل الشئ الجامح. إنها ستسقط فيها فى يوم ما وتغرق.

عمرها تسع سنوات:

فتحت مسز توليفر النافذة ونادت على ماجى لتدخل وقالت وهى تجلس:

ـ إنك تتحدث عن المهارة يا مستر توليفر. لكنى متأكدة أن الطفلة نصف حمقاء فى أشياء. إذا أرسلتها للطابق العلوى لإحضار أى شئ، تنسى ما ذهبت من أجله، وأحياناً تجلس على الأرضية فى الشمس وتغنى لنفسها كشخص مخبول وأنا أنتظرها تحت. هذا ليس فى جانب عائلتى.. ولا بشرتها السمراء أيضاً.

قال مستر توليفر:

ـ كلام فارغ! إنها فتاة رائعة، وتستطيع أن تقرأ مثل القسيس.

ـ لكن شعرها لا يلف، مهما فعلت له.

قال مستر توليفر:

ـ قصّيه! قصّريه لها.

ـ كيف تقول ذلك! إن عمرها تسع سنوات، لقد كبرت على قص شعرها. وابنة خالتها لوسي لها صف من الشعر الملفوف حول رأسها. يبدو من الصعب أن يكون لأختى دين هذه الطفلة الجميلة.

واستمرت الأم قائلة عندما دخلت غلطة الطبيعة الصغيرة هذه الحجرة:

ـ ماجى، ماجى، ما فائدة أن أقول لك ابتعدى عن المياه؟ ستسقطين وتغرقين فى يوم ما! لا تلقى بقبعتك هناك، خذيها إلى الطابق العلوى. وغيرى حذاءك وأكملى شغل الإبرة.

قالت ماجى بصوت غاضب:

ـ أوه يا أمى، أنا لا أريد أن أكمل شغل الإبرة.

ـ ألا تريدى أن تعملى مفرش مائدة جميل لخالتك جليج؟

ـ لا أريد أن أعمل أى شيء لخالتى جليج، أنا لا أحبها.

وانصرفت ماجى، وهى تجرجر قبعتها من شريطها، بينما كان مستر توليفر يضحك مقهقها.

قالت الأم:

- إنى أندهش لضحكك عليها يا مستر توليفر. إنك تشجعها على شقاوتها وخالاتها يلومونني على عدم تعليمها بشكل أفضل.

فصل ٣

مستر ريلى يقدم النصيحة بخصوص المدرسة

شئ هام جدا:

قال مستر توليفر وهو ينظر إلى مستر ريلى بشغف:

ـ كنت أفكر فى شئ.

قال مستر ريلى فى حرص:

ـ آه؟

كان مستر ريلى شخصاً بطيئاً ووقوراً، ولهذا السبب كان مستر توليفر يؤمن به كثيراً، فاستمر قائلا:

ـ إنه أمر هام جدا. إنه بخصوص ولدى توم.

وعند سماع هذا الاسم، تطلعت ماجى التى كانت جالسة

بجوار المدفأة مع كتاب. أصوات قليلة كانت تجذب انتباه ماجى أثناء قراءتها، لكن اسم توم كان مثل أعلى له جليل. وفى التو واللحظة كانت على أهبة الاستعداد للهجوم على أى شخص ينذر بالخطر على توم.

ـ أريد أن أرسله إلى مدرسة جديدة..

مدرسة ممتازة فعلاً.

وأضاف مستر ريلى:

ـ حسن، لا توجد ميزة أعظم فى الحياة من التعليم الجيد، بالرغم من أن الإنسان يمكن أن يكون طحاناً ممتازاً، أو مزارعاً بارعاً بدون مساعدة كبيرة من المدرس.

ـ آه، لكنى لا أقصد أن يكون توم طحاناً أو مزارعا. سأقدم لتوم تعليما جيدا وأضعه فى مجال الأعمال، حتى يستطيع أن يقيم عشاً له ولا أريده أن يزيحنى من عشى.

كانت ماجى تنصت. وكانت متأكدة أن توم لن يكون سيئا لدرجة أن يزيح أباها من بيته. فقفزت من كرسيها وسقط كتابها على الأرض، ثم ركضت إلى أبيها، وقالت فى صوت يشبه البكاء الغاضب:

ـ أبى، إن توم لن يكون سيئا بالنسبة لك. أنا أعرف ذلك.

قال مستر توليفر ضاحكا:

ـ ماذا؟ لا يجب أن يقول أى أحد أى شئ ضد توم، ايه؟ حسن، إنه ولد طيب.

فارتاحت ماجي وتراجعت.

فقال مستر توليفر عندما انصرفت:

ـ مع الأسف إنها ليست بصبى، إنها كانت تتغلب على كل المحامين.

فسأل مستر ريلى:

ـ لكن ولدك ليس بغبى، أليس كذلك؟

ـ حسن، إنه بارع فى أشياء، ولديه إدراك طيب. لكنه بطىء فى لسانه، ويكره الكتب والهجاء.. هكذا يقولون لى، ولا تسمعه أبدا يتكلم بمهارة أخته الصغيرة. والآن أريد أن أرسله إلى مدرسة تجعله سريعا فى لسانه وفى قلمه، وتجعل منه شخصاً حاذقاً. أريد من ابنى أن يتساوى مع هؤلاء الناس الذين تغلبوا علىّ بسبب حصولهم على تعليم أفضل.

فقال مستر ريلى:

ـ إنك على حق يا مستر توليفر. من الأفضل أن تنفق المال على تعليم ابنك، بدلا من تركه له بعد وفاتك.

مستر ستيلنج:

فسأل مستر توليفر:

ـ إنى أتوقع أنك تعرف المدرسة المناسبة لتوم؟

سكت مستر ريلى طويلا قبل أن يجيب:

ـ أعرف فرصة جميلة جدا لأى شخص لديه المال الضرورى. فى الحقيقة، إننى لا أوصى أى صديق لى أن يرسل ولده إلى مدرسة عادية، إذا كان قادراً أن يفعل أفضل من ذلك. يجب أن يحصل الولد على أفضل تعليم، ويجب أن يكون رفيق أستاذه، وهذا الأستاذ يجب أن يكون درجة أولى. وأنا أعرف الرجل المناسب.

كان وجه مستر توليفر شغوفا، فقال:

ـ حسن، دعنا نسمع.

ـ إنه رجل من أكسفورد، رجل دين. إنه مغرم بالتدريس، ويود أن يواصل دراساته. إنه يرغب فى أخذ طالب أو اثنين.

على أن يعاملا كأنهما من أفراد العائلة.. دائما تحت عينى ستيلنج.

قال مستر توليفر، الذى ارتاب فى أن هذا الرجل المدهش سيطلب أجراً باهظاً:

ـ وكم يريد مستر ستيلنج؟

ـ أعرف أحد رجال الدين يطلب مائة وخمسين جنيها وهو ليس فى كفاءة ستيلنج.

قال مستر توليفر:

ـ مائة وخمسون! لم أفكر أبداً أن أدفع مثل هذا المبلغ.

ـ التعليم الجيد رخيص بأى سعر، لكن ستيلنج ليس جشعاً. ولا أشك فى أنه سيأخذ ولدك بمائة فقط.

سأكتب له إذا شئت.

كان مستر ريلى رجل أعمال، ويعرف كيف يستفيد. كان يعرف القليل عن مستر ستيلنج.. لكن ستيلنج كان زوج ابنة تومسون، وكان تومسون رجلا هاما فى المنطقة ويمكنه أن يبعث لريلى بالكثير من الأعمال. ومن الممتع القدرة على تقديم النصح عند الطلب.

***

فصل ٤

توقع حضور توم

كانت خيبة أمل عظيمة لماجى أنها لم يسمح لها بالذهاب مع أبيها فى العربة عندما ذهب لاحضار توم من المدرسة. لكن مسز توليفر قالت إن الصباح كان شديد المطر وغير مناسب لخروجها. واعترضت ماجى بشدة.. وبعد ذلك حاولت مسز توليفر على الفور أن ترتب شعر ماجى، لكن ماجى قد صممت بشكل انتقامى على عدم لف شعرها فى ذلك اليوم. واندفعت من تحت يد أمها، ووضعت رأسها فى حوض من الماء.

فقالت مسز توليفر، وهى جالسة بشكل عاجز والفرشاة فى حجرها:

ـ ماجى، ماجى! ما هي نهاية شقاوتك؟

سأقول لخالتك جليج وخالتك بوليت عند مجيئهما الأسبوع القادم، ولن يحباك بعد ذلك. أوه، يا عزيزتى، أوه، يا عزيزتى! انظرى إلى ثوبك النظيف مبتلاً من أعلاه لأسفله! الناس سيظنون أن..

لكن ماجى لم تستطع سماع الباقى.. كانت فى طريقها إلى حجرة غير مستعملة فى أعلى المنزل.. تحت السطح مباشرة.. ناثرة الماء من رأسها أثناء ركضها مثل كلب هاربا من حمامه.

كانت هذه الحجرة المخبأ المفضل لماجى. وبقيت فيها، تنتحب إلى أن دخل الحجرة فجأة شعاع الشمس. عندها ركضت إلى النافذة. كانت الشمس تتخلل فعلا من بين ثنايا السحب. وبدا صوت الطاحونة مبهجاً ثانية، وكان هناك، ياب، الكلب الأبيض فى بنى راكضا هنا وهناك بلا هدف، وكأنه كان يبحث عن رفيق.

فركضت هابطة السلم، متطلعة إلى الممر خشية أن تقابل أمها، ثم اندفعت إلى الباحة حيث أخذت ترقص وتغنى:

ـ ياب، ياب، توم سيأتى للبيت.

ورقص ياب حولها.

قال لوق، مسئول الطاحونة، الطويل، عريض الكتفين، ذو الشعر الأسود والعينين السوداوين والمغطى بالدقيق:

ـ هاى! آنسة، إذا ظللت ترقصين هكذا، فستسقطين فى الطين.

سكتت ماجى ثم سألت:

ـ لوق، هل لى أن أدخل الطاحونة معك؟

كانت ماجى تحب التجول فى أرجاء الطاحونة الفسيحة:

وكانت الحركة التى لا تهدأ للأحجار العظيمة، والزئير المستمر، ومسحوق الدقيق الناعم فوق كل شئ والرائحة الحلوة النقية تجعل ماجى تشعر أن الطاحونة عالما صغيرا بعيدا عن حياتها اليومية.

وجلست فوق كوم من القمح قرب المكان الذى يعمل فيه لوق.

ـ إذا أقرضتك أحد كتبى يا لوق، هل ستقرأه ؟

ـ لا، يا آنسة، ما أنا بقارئ، فعلى أن أمسك حسابات القمح والدقيق، وليس لدى وقت لمعرفة أشياء كثيرة بجانب عملى.

ـ لماذا، إنك مثل أخى توم. توم ليس مغرماً بالقراءة. أنا أحب توم جدا يا لوق.. أكثر من أى شخص فى العالم. عندما أكبر

سوف أرعى منزله وسوف نعيش سويا دائما. وأستطيع أن أخبره بكل شئ لا يعرفه. اعتقد أن توم ماهر، بالرغم من أنه لا يحب الكتب. إنه يستطيع عمل سياط جميلة ومنازل للأرانب.

قال لوق:

ـ آه، لكنه سيحزن جدا.. لأن الأرانب ماتت جميعها:

فصاحت ماجى، قافزة من فوق القمح:

ـ ماتت! أوه يا ربى! حتى الأرنب الذى له أذنان طويلتان، والأرنب المنقط الذى أنفق توم كل نقوده ليشتريه؟

ـ كلها ماتت.

قالت ماجى، بينما دموعها الغزيرة تنساب على خديها:

ـ آوه يا لوق، توم قال لى أن أرى الرجل الذى يعتنى بهم وأن أذهب لأراهم كل يوم.. وأنا نسيت!

ماذا سأفعل؟ آوه، إنه سيغضب منى، أعرف ذلك. إنه سيحزن على أرانبه. وأنا حزينة أيضا. أوه، ماذا سأفعل؟

* * *

فصل ٥

توم يأتى للبيت

توم يحضر هدية:

كان توم سيحضر بعد الظهر.

وأخيراً سمعت أصوات العجلات، وخرجت مسز توليفر من الباب، ووضعت يدها على رأس ماجى بشعرها غير الملفوف، ناسية كل أحزان الصباح، وقالت:

- ها هو، ولدى الحبيب!

وقفت مسز توليفر بذراعيها مفتوحتين، وقفزت ماجى أولا على ساق واحدة ثم على الأخرى، أثناء نزول توم من العربة. وفكر فى نفسه وكأنه رجل لذا لاداعى لاظهار أية أحاسيس رقيقة. وكانت تحيته الوحيدة هى:

أخضر. انظرى!

وسحب بعضا من شئ من جيبه الأيمن.

فقالت ماجى هامسة:

ـ ما هذا؟ لا أستطيع أن أرى أى شئ سوى..

ـ لماذا، إنها.. خمنى يا ماجى!

قالت ماجى بنفاد صبر:

ـ أوه، لا أستطيع أن أخمن.

قال توم:

ـ حسن، لا تفقدى أعصابك، والا فلن أخبرك.

ودس توم بيده فى جيبه ثانية.

فتوسلت ماجى:

ـ لا يا توم، أنا لست غاضبة. إننى فقط لا أستطيع أن أصبر. من فضلك يا توم.

فخرجت يد توم ببطء من جيبه، وقال:

حسن، إذن، إنه خيط جديد لصيد السمك.. اثنين.. واحد لك

يا ماجى، إنني لم أشتر أى حلوى بالمدرسة حتى أوفر النقود، وتعارك جيبسون وسيونسر معى بسبب ذلك. سنذهب لنصطاد فى النهر غداً، أليس كذلك؟

وكان رد ماجى أن ألقت بذراعيها حول عنق توم ووضعت خدها على خده بدون كلام.. بينما سحب هو بعضا من الخيط، ثم قال:

ـ ألست أخا طيبا، أن أشترى خيطا لك؟

ـ نعم، طيب جدا.. جدا.. إننى أحبك يا توم!

ـ والآن لابد أن أذهب لأرى أرانبى.

توم غاضب:

سكن قلب ماجى من الخوف. لم تجرؤ أن تقول الحقيقة المحزنة على الفور، لكنها مشت وراء توم فى صمت مرتعش، مفكرة كيف تستطيع أن تخبره بالخبر بطريقة تخفف من حزنه وتجعله أقل غضبا.

قالت بخنوع عندما أصبحا خارجا:

ـ توم، كم دفعت من أجل أرانبك؟

قال توم:

ـ خمسة جنيهات وستة بنسات.

ـ أعتقد أن لدى أكثر من ذلك فى صندوقى.

سأطلب من أمى أن تعطيها لك.

قال توم:

ـ لماذا؟ أنا لا أريد نقودك، أيتها البلهاء. أنا لدى نقود أكثر منك لأنى ولد.

ـ أريدك أن تشترى مزيداً من الأرانب.

ـ مزيدا من الأرانب؟ أنا لا أريد.

ـ أوه، لكن يا توم.. لقد ماتوا كلهم.

ـ توقف توم عن المشى فى الحال والتفت إلى ماجى، وقال:

ـ لقد نسيت أن ترعاهم.

وأصبح خداه حمراوين للحظة، ثم شاحبين، فقال:

ـ أنا لا أحبك يا ماجى. إنك لن تذهبى لتصطادى معى غدا. لقد قلت لك أن تذهبى وترى الأرانب كل يوم.

ومشى ثانية.

قالت ماجى، بينما الدموع تنهمر بسرعة:

ـ نعم، لكن نسيت. ولم يكن ذلك عن قصد يا توم، أنا آسفة.

قال توم:

ـ أنت بنت رذيلة، وأنا أسف أنى اشتريت لك خيط الصيد. أنا لا أحبك.

فانتحبت ماجى قائلة:

ـ أوه، توم، هذه قسوة، أنا أغفر لك إذا نسيت أى شئ. ولا أهتم بما فعلت.. لقد غفرت لك وأحببتك دائما.

ـ نعم، إنك بلهاء، لكنى لا أنسى أبداً.. أبداً.

قالت ماجى، مهتزةمن النحيب وممسكة بذراع توم وواضعة خدها المبلل بالدموع على كتفه:

ـ أوه، من فضلك اغفر لى يا توم، إن قلبى يتفطر.

فهزها توم، وتوقف ثانية، وقال بحدة:

ـ ماجى، يجب أن تسمعى. ألست أخا طيبا لك.

قالت ماجى باكية:

ـ نـ.. نـ.. نعم.. وأنا.. أ.. أحبك يا توم.

ـ لكنك كنت بنتا سيئة السلوك فى العطلة الماضية أتلفت علبة الدهان الخاصة بى، والعطلة التى قبلها تركت الزورق يسحب خيط الصيد الخاص بى بعيداً بينما قلت لك أن تراقبيه، و..

قالت ماجى:

ـ لكنى لم أقصد ذلك.

قال توم:

ـ إنك فتاة رذيلة ولن تذهبى للصيد معى غداً.

وبهذا الحكم الفظيع فر توم من ماجى نحو الطاحونة، قاصداً رؤية لوق هناك والتحدث معه عن الأرانب.

ووقفت ماجى بلا حراك.. سوى الحركة الناتجة عن نحيبها. ثم استدارت وركضت إلى المنزل، وصعدت إلى حجرتها تحت السطح وجلست على الأرض وأراحت رأسها على الحائط بإحساس ساحق من البؤس. ها هو توم قد عاد إلى البيت، واعتقدت أنها ستكون فى غاية السعادة، وها هو الآن قاس عليها.

وما فائدة أى شئ إذا كان توم لا يحبها؟ أوه، إنه كان قاسياً جداً! ألم تكن تريد أن تعطيه نقودها، وقالت إنها آسفة؟ إنها تعرف أنها كانت مشاكسة بالنسبة لأمها، لكنها لم تكن مشاكسة لتوم

إطلاقا.. ولم تقصد أن تكون مشاكسة بالنسبة له أبداً.

واعتقدت ماجى أنها بقيت هناك لساعات.

ولابد أن وقت الشاى قد حان، وأنهم جميعا يتناولون الشاى ولا يفكرون فيها. حسن، إذن، فهى ستظل فى مكانها دون أن تأكل شيئا.. تختبئ خلف ذلك البرميل، وستظل هناك طول الليل.. وبعدها سمعت خطوة على السلم.

لقد تكلم توم مع لوق، ومشى حول الحديقة.. مستغرقا فى التفكير فى ماجى وأثر كلماته الغاضبة عليها. ثم نادوا عليه لتناول الشاى. وقال أبوه ومسز توليفر فى وقت واحد تقريبا:

ـ أين ابنتى الصغيرة؟ أين أختك الصغيرة؟

فقال توم:

ـ لا أدرى.

قال والدها:

ـ ماذا! ألم تكن تلعب معك طوال الوقت؟

إنها لم تكن تفكر إلا فى عودتك للبيت.

قال توم، وهو يشرع فى أكل قطعة من الكعك:

ـ لقد رأيتها منذ ساعتين.

فقالت مسز توليفر، وهي تركض إلى النافذة:

ـ يا إلهى! لقد غرقت!

قال مستر توليفر:

ـ لا، إنها لم تغرق، لقد كنت مشاكساً معها يا توم، أليس كذلك؟

قالت مسز توليفر:

ـ لعلها هناك تحت السطح، تغنى وتتحدث مع نفسها ناسية موعد تناول الشاى.

فقال مستر توليفر بشئ من الحدة، شاكا فى أن الولد لم يعاملها معاملة طيبة. وإلا ما كانت فارقته:

ـ اذهب وأنزل بها يا توم..وكن طيبا معها، هل سمعت؟ وإلا سأعطيك درساً!

كانت خطوة توم التى سمعتها ماجى على السلالم. وعرفت أنها خطوة توم. ووقف توم ساكنا عند نهاية السلم وقال:

ـ ماجى، لابد أن تنزلى.

لكنها اندفعت إليه وألقت بذراعيها حول عنقه منتحبة:

ـ أوه، توم، أرجوك اغفر لى.. لا أستطيع تحمل ذلك.. سأكون طيبة دائما.. وأتذكر الأشياء دائما. حبنى.. أرجوك يا عزيزى توم!

ومسحت خدها على خده، وقبلت أذنه بطريقة عشوائية، فظهر الحنان فى الصبى الذى جعله ينسى عزمه على عقابها قدر ما تستحق. وبدأ يقبلها فعلا، ويقول:

ـ لا تبكى إذن، يا ماجى. هيا، كلى قطعة من الكعك.

وفتحت فمها وأخذت قطعة من الكعك، ثم أخذ توم قطعة، وأكلا سويا.

وقال توم أخيراً.

ـ هيا تعالى يا ما جى وتناولى الشاى.

وفى الصباح التالى كانا جالسين بجانب النهر، يصطادان.

قال توم فى همسة عالية:

ـ انظرى، انظرى يا ماجى.

وخشيت ماجى أن تكون قد عملت خطأ ما كالمعتاد، لكن توم سحب خيطها ورفع سمكة كبيرة والقى بها على النجيل.

فرح توم قائلا:

ـ أه يا ماجى، يا عزيزتى الصغيرة! أفرغى السلة. لم تعرف ماجى ما الذى فعلته لتكسب هذا الثناء، لكن يكفى أن توم قد ناداها «ماجى» وأنه رضى عنها.

وكانت تستمتع بالهمسات وبالسكون الحالم، وأنصتت للصوت الرقيق للسمكة الصاعدة من الماء.. بلوب!

وصوت فروع الأشجار من حولها وكأن بين الأشجار والنجيل والماء همسات فرحة أيضاً. وكان صباحا سعيدا لهما.

* * *

فصل ٦

الخالات والأخوال يأتون

كـانت مسز توليفـر مشـغولة فى صنع الكعك، وكـان الكعك خفيفا جدا عن المعتاد.

قالت كـيزيا، الخادمـة، الفـخورة بـالخدمة كـمساعدة لسيدة تستطيع عمل مثل هذه الروائع:

– هبة ريح قد تجعلها تطير مثل الريش. كان هذا الكعك من أجل التجمع العائلى الذى ستسأل فيه الأخت جليج والأخت بوليت عن مدرسة توم التى سيذهب إليها.

اعتقدت مسز توليفر أنه من الحكمة أن تسألهن، وقالت:

– لكنى لن أدعو الأخت دين هذه المرة، فـهى دائمـا تبـحث عن العيوب فى طفلىّ.

قال مستر توليفر:

- أوه، اطلبى منها أن تأتى، فأنا لم أتحدث مع زوجها فنحن لم نره منذ ستة شهور. وماذا يهم فيما تقول؟

إننا لا نحتاج لخدماتها أو نقودها.

- لا يوجد أحد فى أسرتك سيترك أية نقود للأطفال عند الوفاة، لكن هناك أختى جليج وأختى بوليت يوفران المال طوال الوقت.

قال مستر توليفر:

- هيه! وماذا تهم نقود أختيك، وعندهن كثيرون لتقسم بينهم؟ علاوة على أن أختك دين قد تحرضهن على ترك كل أموالهن لطفلتها.

- نعم، أختى دين تستطيع تحريضهن بسهولة، لأن طفلى فى منتهى الشقاوة مع خالاتهما وأخوالهما. فماجى تصبح مشاكسة عند حضورهم عشرة أضعاف عما هى عليه فى الأيام العادية، وتوم لا يحبهم.. على الرغم من أن ذلك طبيعى بالنسبة لصبى. لكن لوسى دين فتاة طيبة، فقد تضعها على كرسى وستظل عليه ساعة كاملة دون أن تحاول النزول. لا أستطيع مقاومة حب تلك الفتاة وكأنها ابنتى.

- حسن، إذا كنت مغرمة بالطفلة هكذا، فلتدعى أباها وأمها لإحضارها معهما، على أن تبقى يوما أو اثنين. ألن تدعى أختى وزوجها العمة والعم موسى أيضا؟... وبعضا من أطفالهما.

- أوه، عزيزى، مستر توليفر، أنت تعرف أن أخواتى لا يتفقن مع أختك.

قال مستر توليفر، وهو يرتدى قبعته خارجا إلى الطاحونة.

- حسن، حسن، افعلى كما تحبين، يا بيزى.

* * *

فصل ٧

دخول الخالات وأزواجهن

مسز جليج ومسز بوليت

كانت مسز توليفر من عائلة دودسن. وكانت عائلة تتمتع بناتها بقسط وافر من الجمال، وكانت مسز جليج لا تقل عن أخواتها الثلاث جمالا. وفى اليوم العظيم لتجمع العائلة، وأثناء جلوسها على كرسى مسز توليفر، كان يستطيع أى إنسان أن يراها، وهى سيدة فى الخمسين، فى غاية الجمال. (لكن توم وماجى كانا يعتبرانها قبيحة جدا). كانت ترتدى قبعتها على جانب واحد... كما كانت تفعل غالبا عندما تكون فى زيارة ما ويتصادف أن يكون مزاجها متعكرا. وأمسكت بساعة ذهبية كبيرة فى يدها وقالت لمسز توليفر، التى عادت لتوها من زيارة خاطفة للمطبخ، أن الساعة الثانية عشرة والنصف، واستمرت قائلة:

– لا أدرى مـا الأمـر مع الأخت بوليت، كـانت العـادة فى أسـرتنا فى يوم مـا أن تصل الأخـوات فى نـفس الوقت... لا أن تجلس إحدى الأخوات نصف ساعة قبل أن تأتـى الأخـريات. أنا مندهشة من الأخت دين، فلقد كانت مثلى.

قالت مسز توليفر:

– أوه، سيجئ الجميع إلى هنا حالا، والغداء لن يكون جاهزا قبل الواحـدة والنصف، لكن إذا كـان من الصـعب أن تنتظرى، دعينى أحضر لك قطعة كعك وكوبا من النبيذ.

فقالت مسز جليج فى ابتسامة مرّة:

– حسن يا بيزى! يجب أن تعرفى أختك أفضل.

أنا لا أتناول أى طعام بين الوجبات أبدا.

كـان صـوت العجـلات منقذا رحـبت به مسـز توليـفر، التى هرعت للخارج لاستقبال أختها بوليت.

كانت الأخت بوليت تبكى بالدموع عندما توقفت عربتها عند باب مسز توليفر. وجلست ساكنة، وهزت رأسـها بحزن وتطلعت من خلال دموعها إلى السماء البعيدة.

فقالت مسز توليفر:

- لماذا، ماذا فى الأمر يا أختى؟

نهضت مسز بوليت ببطء ونزلت من العربة، يتبعها مستر بوليت، رجل صغير بأنف مرفوع، وعينين صغيرتين براقتين وشفتين رفيعتين... كان يبدو مثل زورق صيد صغير بجانب باخرة شراعية عظيمة.

قالت مسز جليج:

- حسن يا أختى، لقد تأخرت، ما الأمر؟

جلست مسز بوليت فى حرص قبل أن تجيب:

- رَحَلَتْ!

فقالت مسز توليفر:

- من؟

استمرت مسز بوليت:

- ماتت أول أمس، وساقاها فى حجم جسمى. كانت متورمة.

قالت مسز جليج فى عزم:

– حسن، لابد أن تكون سعيدة بموتها، أيما كانت، لكنى لا أعرف عمن تتكلمين!

قالت مسز بوليت متنهدة:

– لكنى أعرف، أنها العجوز مسز سوتون من توينتلاند.

قالت مسز جليج التى تبكى من أجل الأقارب فقط:

– حسن، إنها ليست من أقاربك، ولا صديقة حميمة!

مسز دين و لوسى

توقفت المحادثة بوصول مسز دين مع لوسى الصغيرة. وتطلعت مسز توليفر لجدائل شعر لوسى الجميلة المرتبة. كان من الغريب أن مسز دين وهى أرفع وأسمر أخواتها أن يكون لها هذه الفتاة. وكانت ماجى تبدو دائما بجانب لوسى أسمر من المعتاد بضعفين على الأقل.

وهذا ما حدث اليوم عندما دخلت هى وأخوها من الحديقة مع والدهما ومستر جليج. فلقد ألقت ماجى بقبعتها بإهمال شديد، وكان شعرها خشنا بلا جدائل واندفعت فى الحال إلى لوسى. ورفعت لوسى أجمل فم صغير للتقبيل، كان كل شئ فيها جميلاً. وبدت ماجى بجانبها مشوشة وسمراء وغير مرتبة، وصاحت:

- أوه لوسى، سوف تبقين معنا أنا وتوم. أليس كذلك؟

وقف توم محرجا بعض الشئ بابتسامة خفيفة على وجهه.

قالت مسز جليج بصوت مرتفع:

- ياه! هل يدخل الأولاد والبنات الحجرة بدون إبداء أى ملاحظة لخالاتهم وأخوالهم؟ لم أفعل ذلك أبداً عندما كنت صغيرة.

قالت مسز توليفر، باديا عليها القلق والخجل:

- اذهبا وتكلما مع خالاتكما وأخوالكما. وأرادت أن تهمس لماجى بأن تذهب لترتب شعرها.

قالت مسز جليج فى صوتها المرتفع:

- حسن، كيف الحال. آمل أن تكونا بخير. وأنت يا توم ارفع رأسك وانظر إلى أعلى.

وحاول توم أن يسحب يده بعيداً.

- وأنت يا ماجى ضعى شعرك خلف أذنيك. وعدّلى من ثوبك فوق كتفيك.

وقالت الخالة بوليت:

– حسن، يا عزيزاى، أعتقد أنكما تكبران بسرعة.

ثم أضافت وهى تنظر من فوق رأسيهما إلى أمهما:

– أعتقد أن البنت لها شعر كثير، يجب أن تهذّبيه وتقصّريه لها يا أختى، فهذا ليس صالحا لصحتها. هذا ما يجعل بشرتها بهذا السُمار... أليس كذلك يا أخت دين؟

قال مستر توليفر:

– لا، لا، إنها بصحة جيدة، ولا تشكو من شئ. وهناك القمح الأسمر مثل الأبيض، والبعض يفضل النوع الأسمر. لكنى أعتقد أن على بيزى أن تقص شعر البنت وتقصّره حتى يصبح ناعما.

نادت مسز توليفر طفلتها وهمست فى أذنها:

– ماجى، اذهبى وفرّشى شعرك... هيا!

قلت لك لا تأتى بدون أن تذهبى لكيزى أولا، تعرفين أنى قلت ذلك.

لقد تكوّن قرار فظيع فى ذهن ماجى، التى همست:

– توم، تعال معى.

وسحبته من يده، وتبعها توم وكله رغبة فى ذلك وهمست ثانية. عندما أصبحا خارج الباب:

– تعال معى إلى فوق. أريد أن أفعل شيئا قبل الغداء.

قال توم، الذى كان متشوقا للوليمة:

– لا يوجد وقت للعب بأى شئ قبل الغداء.

– أوه، نعم، يوجد وقت لذلك. تعال من فضلك يا توم.

تبع توم ماجى إلى الطابق العلوى ودخلا حجرة الأم، ورآها تذهب على الفور إلى صندوق، وأخذت منه مقصا كبيرا.

– ماذا ستفعلين يا ماجى؟

أجابت ماجى بأن أمسكت بمقدمة شعرها وقصت شعرها من فوق عينيها.

فصاح توم:

– أوه، ما هذا يا ماجى، ستقعين فى مشاكل من أجل ذلك، كان لا يجب أن تقصّى كل هذا.

وجاء صوت المقص وهو يقص ثانية أثناء ما كان توم يتحدث، وبدأ ينظر لذلك على أنها مهزلة، وبدت ماجى عجيبة الشكل.

وقالت ماجى، فرحة بجرأتها ومتشوقة لإنهاء العمل:

- هيا يا توم قص لى من الخلف.

قال توم، هازاً رأسه:

- سوف تعاقبين، هل تعرفين ذلك؟

قالت ماجى بانفعال:

- اسرع!

كان الشعر كثيفا وكان قصه متعة. وصدر صوت المقص مرة... ثم ثانية، وثالثة... وسقط الشعر من الخلف على الأرض بشكل كثيف.

ووقفت ماجى وشعرها مقصوصا بخشونةوعدم مساواة، لكنها شعرت بإحساس من النظافة وكأنها قد خرجت من غابة إلى سهل مكشوف.

قال توم، قافزاً حولها وهو يضحك.

- أوه، ماجى! كم تبدين شاذة عجيبة!

انظرى إلى نفسك فى المرآة! إنك تشبهين الشخص المجنون الذى ألقينا عليه حبّات البندق بالمدرسة.

شعرت ماجى بخوف مفاجئ، لقد أرادت أن تتحرر من شعرها المزعج، ولقد فكرت فى الانتصار الذى ستحرزه على أمها

وخالاتها. إنها لم ترد من شعرها أن يبدو جميلا... فذلك كان مستحيلا. إنها أرادت فقط أن يعتقد الناس أنها فتاة بارعة ولا يجدون عيبا فى شعرها. لكن الآن، عندما بدأ توم يضحك عليها ويقول إنها تشبه الشخص المجنون. بدأ الوضع يبدو مختلفا تماما. وتطلعت فى المرآة، ومازال توم يضحك ويرقص، وبدأ وجهها يزداد شحوبا.

قال توم، وهو يضحك:

- أوه ماجى، عليك أن تنزلى للغداء حالا. أوه يا قلبى!

قالت ماجى ودموع الحنق بدأت تسيل:

- لا تضحك علي يا توم.

قال توم:

- لا تفقدى أعصابك! لماذا قصّرتيه إذن؟ سوف أنزل، فلقد شممت رائحة الغداء وأسرع نازلا تاركا ماجى المسكينة مع ذلك الإحساس المرير بالكارثة، التى كانت تجربة يومية بالنسبة لها تقريبا، كان هذا شيئا غبيا جدا، والآن عليها أن تتحمل المزيد إزاء شعرها عما تحملت من قبل... قالت كيزيا وهى تدخل الحجرة:

- آنسة ماجى، عليك أن تنزلى فى الحال.

يا إلهى! ماذا كنت تفعلين؟ أنا لم أر مثل هذا المنظر أبداً!

فقالت ماجى بغضب:

– لا يا كيزيا! هيا اذهبى! أنا لا أريد أى غداء.

– حسن، لا أستطيع أن أبقى، فعلى أن أحضره إلى المائدة...

وبعد عشر دقائق قال توم، متطلعا فى الحجرة

– ماجى أيتها الصغيرة البلهاء، لماذا لا تأتين وتتناولين غداءك؟ هناك ما لذ وطاب من الطعام، وماما تقول إنك لابد أن تنزلى. لماذا تبكين يا بلهاء؟

أوه، كان شيئا فظيعا. وكان توم قاسيا جدا ولا يعبأ. إذا كان هو الذى يبكى، لبكت ماجى معه.

وهناك الغداء الطيب اللذيذ، وكانت هى جائعة. لكن لم يكن توم قاسيا تماما، فلقد ذهب إليها ووضع رأسه بالقرب منها وقال فى نبرة هادئة مريحة:

– ألن تنزلى يا ماجى؟ أم أحضر لك بعضا من الطعام عندما أنتهى من طعامى؟

فقالت ماجى:

– نـ .. نـ .. نعم.

قال توم، وهو ينصرف:

- وهو كذلك. لكن من الأفضل أن تأتى. توجد الحلويات والبندق واللوز، تعرفين.

توقفت دموع ماجى. فلقد جعلها عطف توم تشعر بتحسن... وهناك الحلويات والبندق واللوز.

فنهضت ماجى ببطء من وسط شعرها المبعثر، ونزلت على مهل. ثم وقفت عند الباب، متطلعة فرأت توم ولوسى وكرسياً خاويا بينهما، وطبقا من الطعام أمامه. وكانت فى منتهى الجوع. فدخلت فى هدوء وذهبت نحو الكرسى الخاوى.

فأطلقت مسز توليفر صرخة قصيرة عندما رأتها، وتحولت كل العيون نحو الهدف.

وبدأ خدى ماجى وأذنيها تشتعل.

قال الخال جليج السيد المهذب ذو الشعر الأبيض:

- هيه! ما هذه الفتاة الصغيرة؟ هل هى فتاة التقطيها من الطريق يا كيزيا؟

قال مستر توليفر هامسا لمستر دين، وهو يضحك:

- لقد قصّت شعرها بنفسها. هل تعرف هذه الفتاة؟

قال الخال بوليت:

- لماذا يا فتاتى الصغيرة، لقد جعلت من نفسك شيئا مضحكا.

وربما فى حياته لم يقل أبدا أى شئ بهذه القسوة.

وقالت مسز جليج بأعلى وأقسى صوت:

- يا للعار! البنات الصغيرات اللاتى يقصرن شعرهن يجب أن يضربن ولا يأكلن سوى الخبز والماء. ولا يجلسن للغداء مع خالاتهن وأخوالهن.

قال الخال جليج، قاصدا أن يلعب بمعنى هذه الكلمات القاسية:

- نعم، نعم ويرسلن إلى السجن، على ما أعتقد وهناك يقصّرن بقية شعرهن.

وقالت الخالة بوليت بصوت رحيم:

- إنها تبدو أكثر سماراً. إنه لحظ سيئ، يا أختى، أن تكون البنت بهذا السمار. ستجد الحياة شاقة... كونها سمراء هكذا.

قالت مسز توليفر، والدموع فى عينيها:

- إنها طفلة مشاكسة، ستكسر قلب أمها. وكلهم.. يتحدثون عنها، يتحدثون ضدها! وفى البداية كانت غاضبة. واعتقد توم أنها شجاعة وهمس لها:

- أوه يا قلبى؛ يا ماجى، قلت لك ستحدث مشاكل.

كان يقصد أن يخفف من هول النكبة، لكن ماجى اعتقدت أنه كان يبتهج لعارها. وخانتها كل شجاعتها فنهضت من كرسيها، وركضت إلى أبيها، وأخفت رأسها فى كتفه وانفجرت فى نحيب مرتفع.

فقال أبوها يهدئها:

- لا تبكى يا ابنتى، لا تهتمى، كنت على حق لتقصيره إذا كان يسبب لك إزعاجا. لا داع للبكاء. والدك سيدافع عنك، والدك سيدافع عنك ويحميك.

كلمات ثمينة من الحنان! لم تنس ماجى أبداً أى من هذه اللحظات عندما دافع والدها عنها. لقد احتفظت بالكلمات فى قلبها، وفكرت فيها سنين طويلة بعد ذلك، عندما قال كل شخص أن أباها قد أساء لطفليه.

فصل ٨

مسترتوليفريظهرقوته العقلية

بعد الغداء أرسلت مسز توليفر الأطفال إلى الحديقة. ثم قالت لزوجها الذى كان منهمكا فى الحديث مع مستر دين:

– مسز توليفر. ألم يحن الوقت أن تخبر خالات وأخوال الطفلين بما ستفعله مع توم؟

قال مستر توليفر بحدة بعض الشئ.

– وهو كذلك، فليس لدى مانع أن أخبر الجميع بما أنوى أن أفعله. لقد قررت أن أبعث به إلى مستر ستيلنج، رجل الدين بنورتون وهو رجل بارع، وسيقوم بتدريسه بشكل جيد.

صدرت أصوات اندهاش.

وقال مستر بوليت:

– لماذا تبعث به إلى رجل دين؟

وقال مستر دين:

– سوف تدفع الكثير لذلك، إيه توليفر؟

قال مستر توليفر:

– لأنى كما ترون، قررت ألا أضع توم فى أعمالى بالطاحونة. سأضعه فى مهنة. لأعطيه تعليما ليستطيع أن يتعامل مع المحامين وذلك النوع من الناس، ويعطينى بعض النصح من وقت لآخر.

أصدرت مسز جليج صوتا ينم عن الشفقة والاحتقار فى الوقت نفسه، ثم قالت:

– من الأفضل لبعض الناس لو تركوا المحامين لحالهم.

وسأل مستر جليج:

– كم سيكلف ذلك؟

– مائة جنيه فى السنة، ذلك كل شئ. لكنه سيكون المال الذى سيعود على الصبى فيما بعد.

قال مستر جليج:

– آه، قـد تكون على حق. لكننا نحن الذين لم نحـصل على تعليم قد أعتنينا بمالنا بشكل أفضل... إيه، مستر بوليت؟

وربت مستر جليج على ركبتيه وابتسم، وقالت زوجته:

– مسـتر جليج، إننى مندهشة لك. إنك تقـوم بالتنكيت وأنت ترى أقاربك ينهارون للهاوية! قال مستر توليفر وكأنه غاضب:

– إن كنت تقصدينى بذلك، فلا تزعجى نفسك، فأنا أستطيع أن أدير شئونى بدون إزعاج الآخرين.

وحاول مستر دين أن يغير الموضوع الذى يتحدثون فيه فقال:

– لقد أخبرنى أحد ما أن المحامى واكيم سوف يبعث بابنه – ذلك الابن المشوّه – إلى رجل دين.

قال مستر توليفر:

– حسن، إن واكيم رجل وغد، لكنه بارع فى الوقت نفسه. إذا أخبـرتنى من هو خباز واكيم، فسوف أخبـرك من أين تشـترى خبزك!

قال مستر جليج:

– لكن ابن واكيم له ظهر مشوه، لذلك فمن الطبيعى إرساله

إلى رجل دين. وليس من المحتمل أن يدخل ابن واكيم فى أى مهنة.

وقالت مسز جليج:

- مستر جليج من الأفضل لك أن تصمت.

فمستر توليفر لا يريد أن يعرف رأيك، ولا رأيى أيضا.

هناك أناس فى العالم يعرفون أفضل من أى شخص آخر.

قال مستر توليفر غاضبا مرة ثانية:

- حسن، أعتقد أنك واحدة منهم.

فقالت مسز جليج باحتقار:

أوه، أنا لا أقول شيئا. فلم يسألنى أحد النصيحة وأنا لا أعطيها.

فأجاب مستر توليفر:

- هذه أول مرة تقولين فيها ذلك، فالنصيحة هى الشئ الوحيد التى ترغبين فى إعطائها بكل ترحاب.

قالت مسز جليج:

- لقد كنت أرغب بكل ترحاب فى الإقراض، إن لم أكن أرغب فى العطاء. وهناك أقارب لى آسفة أنى أقرضتهم مالا.

– لقد حصلت على خمسة فى المائة على النقود التى أقرضتيها لى، بالرغم من أنى قريبك.

قالت مسز جليج:

– بيزى، أنا آسفة من أجلك!

فقالت مسز بوليت:

– أوه يا أختى، لا تتسببى فى الشجار بيننا. فهذا سيئ جداً بين الأخوات. قالت مسز جليج:

إنه شئ سيئ عندما تدعو أخت الأخت الأُخرى إلى منزلها بغرض الشجار معها.

فانفجر مستر توليفر ثانية:

– من يريد أن يتشاجر معك؟ إنك أنت التى تتدخلين دائما فى شئون الناس. فأنا لن أتشاجر مع أى امرأة أبدا إذا كانت تعرف مستواها الصحيح.

– مستواى الصحيح! أنا لم أكن سأقابلك لو لم تتزوج واحدة من أسرتى من مستوى متدنى عما كان يجب أن تفعل.

قال مستر توليفر:

– إن عائلتى مثل عائلتك... وأفضل، لأن ليس فيها امرأة سيئة الطبع بهذا الشكل.

قالت مسز جليج، ناهضة من كرسيها:

– حسن! أنا لن أبقى دقيقة واحدة فى هذا المنزل.

قال مستر جليج بحزن وهو يتبع زوجته من الحجرة.

– أوه عزيزتى، أوه عزيزتى!

قالت مسز توليفر والدموع فى عينيها:

– مستر توليفر، كيف تتحدث بهذا الشكل!

قال مستر توليفر الذى لم يتأثر بالدموع من شدة غضبه:

– اتركيها. اتركيها تذهب، والآن يكون أفضل.

* * *

فصل ٩

مستر توليفر يظهر جانبه الأضعف

خمسمائة جنيه

قالت مسز توليفر ذلك المساء:

- إذا طلبت الأخت جليج منك أن تدفع لها نقودها، فمن الصعب عليك أن تجد خمسمائة جنيه الآن.

كانت لمسز توليفر قدرة خاصة فى قول أشياء تقود زوجها للاتجاه المقابل لما تقوله، وكلامها هذا جعل مستر توليفر يصدّق أنه ليس من الصعب عليه أن يأتى بخمسمائة جنيه وأنه يدفعها بدون أن يسأله أحد بذلك، وأنه لم يكن يريد أن يكون مديونا لأخوات زوجته.

كان مستر توليفر عادة يجد العالم صعبا جدا، وكان يتصرف

ببطء ويتخاذل، لكن عندما يغضب، كان يتصرف بسرعة تبعث على الاندهاش. فما كان منه إلا أن امتطى جواده بعد الغداء فى اليوم التالى منطلقا فى طريقه لمقابلة أخته، مسز موسى وزوجها. لقد قرر أن يعيد لمسز جليج نقودها. فزوج أخته مديناً له بثلاثمائة جنيه فإذا استطاع موسى أن يدفع له ذلك المبلغ، فلن يكون من الصعب عليه أن يدبّر المبلغ المتبقى ليدفع دينه لمسز جليج.

فى الحقيقة كان مستر توليفر يعتقد أنه أغنى بكثير من الواقع الذى كان عليه. لقد كان لديه طاحونته وأرضا شاسعة لا بأس بها، لكنه كان مدينا بألفى جنيه بضمانها. فالرجل الذى يذهب دائما إلى القضاء ضد جيرانه ليس من المحتمل أن يدفع ما عليه من ديون. ولا يستطيع الرجل أن يدفع ديونه إذا كان قلبه الحنون يجعله يقرض النقود لأخته التى تزوجت من رجل فقير ولديها ثمانية أطفال.

سمعت مسز موسى صوت أقدام الجواد، وكانت بالباب مع ابتسامتها المنهكة على وجهها وطفل على ذراعها، قائلة:

- أخى، أنا سعيدة لرؤياك. كيف حالك؟

فأجاب الأخ:

– أوه ... حسن جدا. هل زوجك بالبيت؟

– لا، إنه فى الحقل هناك.

ونادت على أحد أطفالها، وقالت:

– اركض واخبر أباك أن خالك قد حضر. ألن تنزل من فوق جوادك، يا أخى؟

– لا، لا، يجب أن أعود للبيت فورا.

– وكيف حال مسز توليفر والأطفال؟

– أوه، بخير. توم سيذهب إلى مدرسة جديدة، وذلك سيتكلف كثيرا. سأحتاج لتلك النقود.

– أود أن تدع الطفلين يأتيان ويقابلان أولاد عمتهم، الأولاد عندى يريدون أن يروا ابنة خالهم ماجى. أعرف أنها تحب المجئ. إنها طفلة رائعة، وكم هى سريعة نشيطة!

إذا كانت مسز موسى أبرع امرأة فى العالم بدلا من أن تكون واحدة من أبسطهن، لما فكرت فى شئ يرضى أخاها أكثر من ثنائها على ماجى. فبالرغم من الحالة التى هو فيها، أصبحت عيناه أكثر حنواً.

– نعم، إنها مغرمة بك أكثر من خالاتها الأخريات. أعتقد أنها

أكثر شبها بأسرتنا، ولا يوجد فيها شئ من أسرة أمها.

- أعتقد أن ابنتى ليزى تشبهها. تعال هنا يا ليزى.

قال، متطلعا بعطف إلى الطفلة الصغيرة فى ملابسها المتسخة بعض الشئ:

- نعم، إنها تشبهها بعض الشئ. لديك بنات كثيرات يا جريتى.

قالت مسز موسى فى تنهيدة:

- أربع، وأربعة صبيان، فكل واحدة لها أخ.

قال مستر توليفر، محاولا أن يجعل نفسه صلبا ثانية:

- أه، لكنهن لا يجب أن يتوقعن الاعتماد على أخواتهن.

قالت أخته:

- لا، لكنى آمل أن يحببهن أخوانهن. فكلما زاد العدد وجب المزيد من الحب بينهم. وآمل أن يكون ولدك طيبا دائما لأخته، رغم أنهما اثنان فقط... مثلك ومثلى.

دخلت تلك الكلمات مباشرة فى قلب مستر توليفر، واستطاع أن يقارن بين علاقته مع أخته وعلاقة توم لماجي. هل سيحدث

إيتكون طفلته فى حاجة، ويكون توم قاسيا معها؟

قالت مسز موسى:

- هذا هو الأب.

نزل مستر توليفر من فوق جواده وذهب مع مستر موسى إلى الحديقة.

قال مستر توليفر:

- لا أستطيع الاستغناء أكثر من ذلك عن نقودى.

فعلى أن أدفع خمسمائة لمسز جليج، وتوم سيذهب إلى مدرسة ستكلفنى كثيرا. لابد أن تعمل على إعادة الثلاثمائة جنيه لى.

قال مستر موسى:

- حسن، إننى مدين بالإيجار. سأبيع كل شئ لأدفع لك ولأدفع إيجارى أيضا.

- لابد أن تفعل ما تستطيع. فلا أستطيع الانتظار أكثر من ذلك. لابد أن تدفعها فى أقرب وقت ممكن.

وخرج مستر توليفر مسرعا من الحديقة وامتطى جواده.

وتوقف خارج البوابة وقال بصوت مرتفع:

- مسكينة البنت الصغيرة، فلن يكون لها أحد سوى توم عندما أرحل.

وأدار جواده وسار ببطء عائدا إلى بيته.

وكانت مسز موسى لا تزال واقفة عند الباب، وكانت تبكي. فقال مستر توليفر في صوت رقيق:

- لا تنزعجي يا جريتي، سأدبر نفسي لفترة... لكن لابد أن تكوني ماهرة ومدبرة قدر الإمكان.

فانهمرت دموع مسز موسى ثانية.

فقال مستر توليفر برقة أشد:

- كل شئ على ما يرام. وستأتي ابنتي ماجي لتراكم قريبا. لا تزعجي نفسك... فسوف أكون أخا طيبا لك دائما.

وبحث مستر توليفر في كل مكان عن شخص يقرضه خمسمائة جنيه.

وقال:

- لا يجب أن يكون صديقا لواكيم المحامي.

لكن الشخص الوحيد الذى استطاع العثور عليه كان صديقا لواكيم.

لقد أمسك نهر القدر بمستر توليفر فى تياره، مثل ريشة عاجزة فى مجرى مياه طاحونته.

فصل ١٠

توم عند منزل مستر ستيلنج

ترك مستر توليفر توم عند منزل مستر ستيلنج وعاد لبيته في حالة ذهنية راضية جدا. لقد اعتبرها لحظة سعيدة عندما فكر أن يسأل نصيحة ريلى بخصوص مدرس لتوم. لقد بدا مستر ستيلنج في منتهى الذكاء، ولقد تحدث بطريقة سريعة، معقولة ... مجيبا على كل جملة من جمل مستر توليفر الصعبة البطيئة بمثل:

- أعرف يا سيدى الطيب، أعرف...

أو:

- طبعا، طبعا، تريد ابنك أن يكون رجلا ناضجا فى الدنيا.

بالإضافة إلى أنه سأل مستر توليفر النصيحة إزاء إطعام البقر،

ولقد قال العديد من القصص الطيبة. كان ستيلنج بكل وضوح رجلا يعرف كل شئ... ويعرف بالضبط ما يجب أن يتعلمه توم لكى يصبح مساويا لهؤلاء المحامين.

وليس من العدل الضحك على مستر توليفر، لأنى أعرف أناسا أكثر تعليما بكثير لديهم أفكارا خاطئة، ولأسباب ليس أقوى من أسبابه.

كانت معاناة توم خلال الثلاثة شهور الأولى تحت رعاية مستر ستيلنج شديدة بعض الشئ.

فى مدرسته، لم تكن الحياة صعبة. وكان ممتازا فى الألعاب.. خصوصا المصارعة. ولم يحظ مستر جاكوب مدير المدرسة باحترام توم ولم يؤثر عليه بكثير من التعليم.

ولم يكن توم يتخيل أن أى مدير مدرسة قد يختلف عن مستر جاكوب كلية، أو أى مدرسة قد تختلف كثيرا عن تلك.

وعلى الفور اكتشف توم أن الحياة فى منزل مستر ستيلنج كانت شيئا صعباً. كان عليه أن يتعلم اللغة اللاتينية، وكان عليه أن يتعلم نطق اللغة الإنجليزية بطريقة جديدة تماما. كان هيوبا... وجعل ذلك النطق أكثر صعوبة، لذلك كان لا يجرؤ على قول

كلمة واحدة إجابة لمستر أو مسز ستيلنج، وكان أكثر تهيبا عندما يسألانه على المائدة إذا كان يحتاج المزيد. لكن كان من المستحيل أن يحتقر مستر ستيلنج كما كان يحتقر مستر جاكوب.

كان توليفر الصغير هو أول تلميذ لمستر ستيلنج، فإذا حقق نجاحا معه، فسيتبعه تلاميذ آخرون. لذلك عقد العزم على النجاح.

كان مستر ستيلنج دائما يقول إن:

- التدريس يأتى طبيعيا.

وربما لهذا السبب كان يؤهل نفسه له بنفس الطريقة الطبيعية (التى ليس فيها أى خيال) كما هى موجودة فى عالم الحيوان. فالطيور تبنى أعشاشها، والنمل يبنى تلاله بنفس الطريقة التى يبنونها بها دائما حتى لو انتقلوا إلى بلد مختلف. وهكذا علم مستر ستيلنج اللغة اللاتينية لتوم، لمجرد أنه هو نفسه قد تعلم اللغة اللاتينية فى المدرسة، وبنفس الطريقة تماما التى قد تعلّمها بها.

وعلى الفور قرر أن توم كان ولدا بليدا تماما، وشك فى أنه لم يكن يحاول بكل جهده. لم يكن توم يجد أية صعوبة فى التعلم عن الكلاب والجياد والمهارات التى تؤدى خارج الجدران (أقل،

ربما، من مستر ستيلنج)، لكنه بالتأكيد كان يجد صعوبة فى تعلم اللغة اللاتينية.

كان مستر ستيلنج يقول - وهذا حقيقى:

- إنك لا تستمتع بما تفعل.

كان قاسيا مع توم بخصوص دروسه، لأنه اعتبر توم صبي لن يتعلم بدون بعض الشدة، إنه لم يكن سيئ المزاج ولا رجلا قاسيا... بالتأكيد لا، فكان يمزح مع توم على المائدة ويصحح طريقته فى الحديث وسلوكه بطريقة هزلية تماما، لكن توم لم يكن معتادا على نكات مثل نكات مستر ستيلنج، ولأول مرة فى حياته ينتابه شعورمؤلم بأن كل ما يفعله أو يقوله كان خاطئا.

أما بالنسبة للعب.. فكان توم يذهب فى تمشيات طويلة مع مستر ستيلنج، رغم أن مستر ستيلنج قال إنه سيرتب تعيين مدرس للألعاب للنصف الثانى من السنة. واعتقدت مسز ستيلنج أن من صالح الولد ليجعل من نفسه شخصا مفيدا، فى وقت فراغه، لذلك جعلته يراقب ابنتها الصغيرة. لورا، أثناء انشغال المربية بالطفلة الأصغر.

كم اشتاق توم لأحد ما ليلعب معه! وكان فى أعماق قلبه

يشتاق فى أن تكون ماجى معه، وسينسى كل أخطائها، وكل ما يصدر منها من نسيان... إذا كانت موجودة هنا فقط.

شخص ما يلعب معه!... دائما مستر ستيلنج... فقط مستر ستيلنج... مستر ستيلنج كل يوم... وكل وقت!

* * *

فصل ١١

ما جى تزور توم..

قبل انتهاء نصف العام البائس هذا، جاءت هاجى بالفعل لتزور توم، لدق دعتها مسز ستيلنج لتأتى وتبقى مع أخيها، وهكذا كانت ماجى مع أبيها مستر توليفر عندما جاء للمدرسة فى أواخر شهر أكتوبر.

كانت زيارته الأولى لكس يرى توم... يجب على الولد أن يتعلم وألا يفكر كثيرا فى البيت.

قال لتوم:

- حسن يا بنى. انك تبدو فى حالة جيدة!

ان المدرسة محتارة بالنسبة لك.

تركهم مستر ستيلينج، وذهبليخبر زوجته بحضورهما.

قال توم:

- لا أعتقد أننى فى حالة جيدة يا أبى، وأتمنى لو أنك طلبت من مستر ستيلنج الا يجعلنى أتعلم اللغة اللاتينية، انها تجعلنى أشعر دائما بالاعياء.

قال مستر توليفر:

- كلام فارغ، يجب أن تتعلم ما يقوله لك استاذك، انه يعرف ما هو مناسب لك لتتعلمه. فقالت ماجى، محاولة أن تريحه وتشجعه:

- سأساعدك الآن يا توم. لقد جئت لأقى مدة طويلة، اذ طلبت مسز ستلينج منى ذلك.، لقد أحضرت معى صندوقى وملابسى.

قال توم فرحا بفكرة لماجى أنها لا تستطيع مساعدته:

- انت تساعدينى! أيتها الصغيرة البلهاء!

انك تستطيعين القيام بدرس واحد من دروسى. ان البنات لا يتعلمن مطلقا مثل هذه الأشياء، فهن ساذجات جداً على هذا.

لم تذكر مسز ستيلنج فى دعرتها مدة أطول من أسبوع لبقاء

ماجى، ولكن مستر ستيلنج أخذ ماجى على ركبته وسألها من أين جاءت بعينيها الداكنتين، وقال إنها لابد أن تبقى على الأقل لمدة أسبوعين. ورأت ماجى أن مستر ستيلنج رجل ساحر، وكان مستر توليفر مخموراً للغاية لترك ابنته الصغيرة حيث يكون لديها فرصة اظهار براعتها للغرباء. قال توم عند انصراف والدهما:

- ماجى، تعالى معى إلى المكتبة، لماذا تعزين رأسك الآن، أيها البلهاء؟

وكان ذلك لأن شعرها أصبح مرتبا مسدلا نت خلف أذنيها، فقالت ماجى بنفاد صبر:

- أوه، هذا خارج عن ارادتى، لا تزعجنى يا توم.

وعندما رأت أرفف الكتب فى المكتبة صاحت قائلة:

- أوه، يالها من كتب! أود أن يكون لدى هذه الكمية من الكتب!

قال توم فى انتصار:

- لماذا، انك لا تستطيعين قراءة واحدة منها، فكلها باللغة اللاتينية.

قالت ماجى:

- لا، انها ليست كذلك، استطيع قراءة ظهر هذا الكتاب - تاريخ انهيار وسقوط الامبراطورية الرومانية.

قال توم:

- حسن، ماذا يعنى ذلك؟ انك لا تعرفين.

قالت ماجى باحتقار:

- أوه، أستطيع أن أعرف.

- لماذا، كيف؟

- سأنظر فى داخله وأعرف موضوعه.

قال توم، وهو يرى يدها على الكتاب:

- من الأفضل ألا تفعلى ذلك يا آنسة ماجى، فمستر ستيلنج لا يدع أى حد يلمس كتبه بدون اذن، وحتى أنا سأعاقب لو أخرجته.

قالت:

- وهو كذلك، اذن دعنى أرى كل كتبك.

والتفت يذراعيها حول عنق توم وحكت خده بأنفها المستدير الصغير.

ومن سعادة توم النابعة من أعماق قلبه لحصوله على حبيبته القديمة ماجى ليتشاجر معها ثانية، أمسك بها من خصرها وبدأ يثب معها حول المكتبة الكبيرة وأخذا يثبان بعيدا وأسرع وأسرع، حتى تطاير شعر ماجى من خلف أذنيها، وأخيرا وصلا للمنضدة الصغيرة الخاصة بمستر ستيلنج، فقالبها رأساً على عقب، وكان صوت الصدام عاليا. فوقف توم فى رعب لمدة بضع دقائق، خاشيا ظهور مستر أو مسز ستيلنج.

فقال أخيرا، وهو يرفع المنضدة.

ـ أوه على كرة يا ماجى يجب أن نحافظ على الهدوء هنا. واذا كسرنا أى شىء فستغضب مسز ستيبينج وتوبخنى.

فألت ماجى:

ـ هل هى امرأة نكدية

قال توم: انها بالتأكيد كذلك.

قالت ماجى: اعتقد أن كل النساء نكديات أكثر من الرجال، فالخالة جليج نكدية أكثر من الخال جايج، وأمى تعنفنى أكثر من أبى.

قال توم:

ـ حسن ستكونين امرأة فى يوم ما.

قال ماجى:

ـ لكنى سأكون امرأة ماهرة.

ـ أوه الفم، وشىء متكبر كريه، وسيقتك الجميع ويكرهونك.

ـ أوه، لا يجب أن تكرهنى يا توم. سيكون ذا فظيعس ضدك، لو فعلت ذلك، لأنى أختك.

ـ نعم لكن اذا كنت شيئاً مقرفاً، فسأكرهك.

ـ أوه. لكن ان تكرهنى يا توم! ولن أكونما قلت ـ سأكون طيبة جدا لك... وسأكون طيبة لكل انسان، لن تكرهنى فى الحقيقة، أليس كذلك، يا توم؟

ـ أوه، لا أدرى!.. والآن حان وقت مراجعة دروسى انظرى ماذا على أن أفعله

وسحب ماجى ناحيته وأراها عمله، وقال:

ـ انظرى ان كنت تفهمين شيئاً من ذلك. وجدت ماجى اللغة اللاتينية مسليةج جدا، لقد فرحت بالكلمات الجديدة، ووجدت

بسرعة أن هناك قائمة بالكلمات اللاتينية مع معانيها الانجليزية في نهاية الكتاب فقالت:

ـ أوه، توم انه كتاب رائع، استطيع تعلم اللغة اللاتينية قريبا جداً، ولا أعتقد أنها صعبة.

ـ أعرف ماكنت تفعلينه، لقد كنت تقرأين المعانى الإنجليزية فى النهاية. أى ساذج يمكن أن يفعل ذلك.

كانت هذه الزيارة لقوم وقتا سعيدا جدا لماجى.

ولقد سمح لها أن تتواجد معه فى المكتبة عند أداء دروسه، وتعلمت أشياء كثيرة عن اللغة اللاتينية

وكان مستر ستيلنج معجبا بحديثها، وأصبحا صديقين وأخبرت توم أنها تحب أن تدرس بالمدرسة مع الاستاذ ستيلينج وتتعلم نفس الأشياء كما كان يفعل هو، وكانت متأكدة أنها ستكون قادرة على عمل كل مايطلب منها.

قال توم:

ـ أنا متأكد انك لاتستطيعين عمل ذلك،

وسأسأل مستر ستبيلنج إذا أمكنك

قالت ماجى:

ـ سأسأله بنفسى.

وقالت نفس المساء:

ـ مستر ستيلنج، هل أستطيع دراسة اللغة اللاتينية وكل دروس توم إذا قمت بتدريسى بدلا منه؟

قال توم بسخط:

ـ لا، لايمكنك. فالبنات لاتستطيع عمل تلك الأشياء، أليس كذلك ياسيدى؟

قال مستر ستيلنج:

ـ يستطعن تعلم القليل من كل شئ. فهن لديهن مهارة من هذا النوع. فهن سريعات، لكنهن لايتعمقن فى الأشياء.

ابتهج توم بهذا الحكم، وابدى انتصاره بهز رأسه لماجى من خلف كرسى مستر ستبلنج.

لم تشعر ماجى بذل مثل ما شعرت فى تلك اللحظة كانت فخورة بأن تدعى سريعة طول حياتها القصيرة...

والآن ظهر أن هذه السرعة شئ تخجل منه. وكان منى الأفضل أن تكون بطيئة مثل توم

قال توم، عندما أصبحا وحدهما:

ـ ها، ها! آنسة ماجى! ترين أنه ليس شيئا جميلا أن تكونى «سريعة». انك لن تتعمقى فى أى شئ أبداً.

وأصبحت ماجى منزعجة لفكرة هذا المصير المفزع حتى أنها لم ترد.

وعندما غادرت هذه الشخصية الصغيرة والسريعة لكن غير المتعمقة، بالعربة مع لوق، أصبحت المكتبة موحشة مرة أخرى بالنسبة لتوم، وشعر بفقدانها بشكل فظيع. لقد أصبح بالفعل أنبه وسار فى دروسه بشكل أفضل منذ أن وصلت إلى هناك لقد سألت مستر ستيلنج العديد من الأسئلة عن الامبراطورية الرومانية التى كان توم قد بدأ فى دراستها وأنه كان هناك أناس محظوظون يعرفون اللغة اللاتينية دون تعلمها فى المدرسة.

***

فصل ١٢
عطلة الكريسماس

كانت فرحة عيد الميلاد حقيقية بالثلج والبرد والصقيع وجاءت العمة موس وزوجها مع كل أطفالهما إلى عشاء الكريسماس وكان الكريسماس رائعاً بشكل لم يتذكر توم أن جاء مثله من قبل، لوجود ثلج وفير، ولأنه يستطيع أن يتقاذف بكرات الثلج وينزلق على الجليد.

ومع ذلك لم يكن يوم الكريسماس هذا سعيدا كما كان دائما من قبل. كان الكريسماس مبهجا، لكن مستر توليفر لم يكن كذلك. كان غاضبا، إذ كان لديه أعداء، وازداد صوته ارتفاعا وهو يحكي قصة أخطائه على مائدة العشاء. شعر توم أن العالم ملئ بالأوغاد، وأن حياة الكبار تعنى الكثير من المشاحنات.

كان «العدو» هو بيفارت. كان لبيفارت أرضنا قريبة من فرع النهر وكان يقوم بإنشاء قنوات لسحب المناء من النهير إلى أرضه. وكان الرجل الوحيد بين المستعين لمستر توليفر هو مستر موسى... لكن مستر توليفر لم يكن يتكلم ليثبت أى شئ لأى أحد، كان يتحدث ليعبّر عن أحاسيسه. ولقد جعل العشاء الطيب مستر موسى نعسانا، ولكن مسز موسى كانت تهتم بكل شئ يحض أخاها، فقالت:

ـ ان بيفارت اسم جديد فى هذا المكان، اليس كذلك، ياأخى؟

فقال مستر توليفر بغضب:

ـ اسم جديد؟ نعم! ان طاحونه دورلكوث فى حوزه اسرتنا عما يزيد عن ما ئة سنة، ولم يسمع أحد بمن له اسم بيفارت يلمس النهر، إلى أن اشترى هذا الرجل مزرعة بنكومب....

قالت مسز موسى بقلق:

ـ لن يجبرك أحد على الذهاب إلى القضاء بسببه. آمل ذلك ياأخى.

ـ لاأدرى ماسوف أجبر عليه، لكنى أعرف ما سأجبره على فعله، إذا كان هناك عدل فى هذه الدنيا. أنا اعرف من يشجعه...

إنه واكيم! أعرف أن واكيم يقول له أنه آمن من الناحية القانونية، لكن هناك محامين آخرين غير واكيم. مطلوب من هو أكثر سفالة للتغلب عليه، ولكن هناك سافلا أكبر لابد العثور عليه. لقد خسر واكيم فى قضية بروملى.... أنهم ليسوا أناسا طيبين الذين يقولون لى إن قنوات مياه بيفارت لن توقف عجلة طاحونتى... أعرف أنها سوف توقفها، وأعرف عن الماء كما يعرف أى رجل.. ايه، موسى؟

تطلعت مسز موسى عبر المائدة إلى زوجة أخيها، وقالت:

ـ أنا آسفة أن أرى أخى بهذا، الغضب والقلق بخصوص موضوع الماء.

فأجابت مسز توليفر:

ـ أنها طريقة أخاك يامسز موسى. عندما يكون مسلكه ليس محل اعجاب.

وبدت مسز موسى قلقة وهى تقول:

ـ آمل وأدعو ألا يلجأ للقضاء. فالحق لايفوز دائما فى المحاكم. مستر بيفارت هذا رجل غنى. والأغنياء عادة يحصلون على مايريدون.

فقالت مسز توايفر:

ـ أعتقد أحياناً أنني سأصاب بالجنون بسبب كل هذا الحديث عن القانون والماء. فلا شئ إلا «القانون» و«الماء» منذ أن نستيقظ في الصباح إلى أن نذهب للنوم في المساء. لكنني لاأمنعه أبداً، ومــاأقول إلا «افعل، ابدأ الآن، لكن مهما فعلت، لاتذهب إلى القضاء».

وكما رأينا، يبدو أن ماتقوله مسز توايفر لزوجها يجعله يفعل العكس. ومافعل أكثر من كلمات زوجته لزيادة شغفه للذهاب إلى القضاء، كان منظر مستر واكيم نفسه كل يوم من أيام السوق. انه واكيم الذي جعل مستر توايفر يخسر في تلك المنازعات القديمة مع ديكس، ثم ثانية في ذلك الموضوع الخاص بالجسر، وكآخر قطرة من المرارة، فلقد اضطر إلى اقتراض مبلغ الخمسة آلاف جنيه من صديق لواكيم. إنه سيلقنواكيم درساً هذه المرة!..

قال توم في إحدى الأمسيات قرب انتهاء العطلة:

ـ أبي، الخال جليج يقول إن المحامي واكيم سيرسل ابنه إلى مستر ستيلنج. أنك لن تحب أن أذهب إلى مدرسة مع ابن واكيم، أليس كذلك؟

فقال مستر توليفز

ـ لايهم، لاتتقلم شيئا سيّئا منه... هذا كل شئ. الولد مسكين، مخلوق مشوّه، وهو يشبه أمه أكثر من زبيه فى الوجه. لكن هذا يدل على أن واكيم حسن الظن بمسترستيلنج، وواكيم يعرف ماهو الصالح.

كان مستر توليفر فخوراً من الداخل بأن ابنه سيحصل على نفس التعليم مثل ابن واكيم لكن توم لم يشعر بارتياح بخصوص ذلك. إذا لم يكن واكيم الصغير مشوها، لكانت لديه الفرصة فى مصارعته كما يشاء، لكن... لكن كان فيليب واكيم مع الأسف مشوها.

***

فصل ١٣

زميل المدرسة الجديد

ـ حسن ياتوليفر، نحن سعداء أن نراك ثانية.

اخلع معطفك وتعال إلى المكتبة حتى موعد الغداء. ستجد المدفأة مشتعلة هناك... وزميلا جديدا!

شعر توم بعدم الراحة وهو يخلع معطفه. لقد رأى فيليب واكيم فى سانت أوج، وكان يبعد عينيه عنه بسرعة بقدر الإمكان.

قال مستر ستيلنج، أثناء دخولهما المكتبة:

ـ هاهو رفيق جديد لك لتصافحه ياتوليفر...

فيليب واكيم. سأترككما لتتعارفا سويا وحدكما. ربما قد تقابلتما من قبل... فأنتما جيران فى نفس المنطقة.

بدا على توم الاضطراب، بينما نهض فيليب وتطلع إليه فى وجل. وانصرف مستر ستلنج بذكاء واغلق الباب خلفه.

كان فيليب متعاليا وهبابا فى نفس الوقت، فلم يسر نحو توم، معتقدا أن توم لايجب النظر إليه، وكان تشوهه واضحا عندما يمشى. وهكذا ظلاً بدون مصافحة أو حتى التحدث. ذهب توم إلي المدفأة وأخذ يدفئ نفسه، وكان يلتفت لفيليب وينظر إليه من وقت لآخر.

وجلس فيليب وكان يرسم على قطعة من الورق، وأثناء رسمه كان يفكرّ فيما يستطيع أن يقوله لتوم.

بدأ توم يزيد من نظراته إلي وجه فيليب ويطيل وفكر توم إنه ليس وجها عبوساً علي الأطلاق بل ومألوفا جدا. وتساءل كم كان فيليب واكيم أكبر منه. كان يبدو شاحبا وضعيفا، كان واضحا أنه لايستطيع أن يلعب أى العاب حركية.. لكنه كان يبدو أنه قادر على الرسم بشكل جيد، كان يرسم شكلا وراء آخر بدون أى مشاكل. ترى ماذا كان يرسم؟

أصبح توم دافئا تماما الآن. كان من الأفضل بالتأكيد أن يكون له هذا الشخص المشوّه كرفيق عن أن يكون وحيدا. وفجأة مشى عبر الحجرة وتطلع إلى ورقة فيليب. وقال متعجبا ومندهشاً:

ـ ياه، انه حمار ومقاطف وسلال! وكلب وبعض الدجاج فى الحظيرة! أوه، أود لو كنت أستطيع أن أرسم مثل ذلك!

ـ أوه، يمكنك عمل ذلك بدون تعليم، أنا لم أتعلم الرسم مطلقا.

ـ لم تتعلم مطلقا! عندما أرسم كلابا وجيادا لاتظهر السيقان والرءوس مضبوطة.

وفكر توم أنه لايجب أن يبدو متواضعا هكذا مع هذا الشخص، فقال:

ـ لكنى أعتقد أنى أستطيع اذا حاولت.

ـ أوه، نعم، إنها عملية سهلة جدا.

ـ لكن ألم تتعلم أى شئ؟ أعتقد أنك كنت فى المدرسة من وقت طويل.

قال فيليب مبتسما،

ـ نعم، لقد تعلمت اللغة اللاتينية واللغة اليونانية... والكتابة، ومثل هذه الأشياء.

ـ أوه، لكن... لابد أنك لاتحب اللغة اللاتينية، أليس كذلك؟

ـ إنها لاتزعجنى.

ـ انتظر حتى تصل إلى الأفعال الشاذة

قال فيليب:

ـ أوه، لقد انتهيت من كل ذلك. أنا لاأتعلم هذه الأمور حاليا.

قال توم بإحساس بالخيبة:

ـ إذن لن تأخذ نفس الدروس التى آخذها.

ـ لا ... لكن اتوقع أنى سأقدر على مساعدتك. سأكون سعيدا بذلك، إذا استطعت.

لم يبد ابن واكيم شخصا كريها كما كان يتوقع توم

قال توم بعد فترة:

ـ اقول، هذ تحب أباك؟

قال فيليب، وقد احمر وجهه:

ـ نعم، ألا تحب أباك؟

قال توم خجلا من نفسه:

ـ أوه، نعم... كنت فقط أريد أن أعرف

ثم قال توم بسرعة عائدا إلى موضوع الحديث السابق:

ـ لاأستطيع أن أعرف لماذا يجب تعلم اللغة اللاتينية، فأنا لاأظن أن سيرجون كريك يعرف اللغة اللاتينية، وهو فارس يركب الجياد أفضل من أى شخص فى المنطقة.

قال فيليب:

ـ لقد تعلم اللغة اللاتينية وهو صبى، طبعا، لكنه ربما نسيها الآن.

قال توم:

ـ حسن، يمكننى أن أفعل ذلك، إذن.

فضحك فيليب، وقال:

ـ اتذكّر أشياء. وهناك بعض الدروس مغرم بها جداً. فأنا مغرم بالتاريخ اليوناني. وكنت أحب أن أكون يونانيا وأحارب الفرس.

ـ هل توجد أى قصص عن القتال فى التاريخ اليونانى؟

ـ أوه، نعم، يوجد قصص جميلة جداً من هذا النوع عن اليونانين.

فقال توم فاخراً على ساق ثم على الأخرى:

ـ اقول، ص تخبرنى بها؟

ـ نعم، فأنا أعـرف كـثـيرا من القـصص بجـانب القـصص الأغريقية

ورغب توم أن يجعل الأمور متساوية فقال:

ـ وأنا أستطيع أن أشرح لك كيف تصطاد السمك. هل تستطيع صيد السمك؟ لاتحـتـاج، كمـا تعرفـ، الإ الوقـوفـ والجلوس سـاكنا لاغير.

ـ أنا أكره صيد السمك. اعتقد أن الناس تبدو مثل الحمقى وهم يجلسون ويراقبون خيط الصيد ساعة وراء ساعة.

قال توم:

ـ آه، لكنك لن تقول ذلك عندما. يصطادون سمكة كبيرة! لا!

كـان من الواضح أن ابن واكـيم كـان ممجـوجـا فى بعض الأمور، ولابد من السيطرة عليه

فصل ١٤

توم وفيليب

كان توم يشعر أحيانا بالصداقة وأحيانا بعدم الحب لفيليب. لم يستطع أبدا أن ينسى كلية أن فيليب كان ابنا للوغد، لكنه أحب صحبة فيليب... إلى جانب أن فيليب أخذ يساعده في اللغة اللاتينية.

وأصبحت الحياة بالنسبة لتوم أقل مشقة خلال النصف الثاني من السنة. وكان فيليب متقدما جدا في دراساته ومتعلما سريعا فكان مستر ستيلنج أكثر اهتماما به عن توم، لأنه كان يستطيع الحصول على نتائج طيبة وبسهولة أكثر مع فيليب. وأخذ توم يعتمد على فيليب في مساعدته. وكان يسير في التعلم بسرعته الخاصة به.

وكان هناك تحسن عظيم في سلوكه وفي طريقة وقوفه ومشيه وكان هذا ومشيه. وكان هذا يعود إلى مستر بولتر الذى كان جنديا عجوزاً حارب مع ولينجتون في أسبانيا. لقد عينه ستيلنج ليدرب توم على بعض التمرينات وكان يستمتع بالدروس مثلما كان يستمتع بها توم. وكان يستمتع بالدروس مثلما كان يستمتع بها توم. وكانت دروس التدريبات تلهم قصص مستر بولتر عن المعارك... التي كانت أكثر إثارة لتوم من قصص فيليب عن يوليسيس وأبطال الأغريق الآخرين التي قد تكون خيالية.... بينما قصص مستر ولينجتون كانت حقيقية فعلا. وبدا أن مجموعة الجنود التي قادها مستر بولتر قد أخذت نصيبا من الانتصارات في كل المعارك التي خاضتها، ولقد عبر ولينجتون نفسه عن إعجابه الدائم بهذا الرفيق الرائع «بولتر» وكان الطبيب الذي عالج بولتر عنده أسبوع مندهشا للطريقة المذهلة التي التأمت بها جراحه.

قال توم:

.. مستر بولتر، أود أن أخبرك بأنني قمت بتمرينات السيف».

وفي أحد الأيام أحضر السيف.

فقال توم، وهو يتناوله باحترام:

ـ هل قطع رأس أحد الرجال؟

ـ آه! وكان من الممكن أن يقطع ثلاثة رؤوس في وقت واحد! فالسيف هو أفضل سلاح عندما يأتى للقتال وجها لوجه.

وازداد مستر بولتر انفعالا وسحب السيف فجأة فاضطر توم أن يتراجع بسرعة.

فصاح توم:

ـ أوه! إذا كنت ستقوم بأداء تمرينات السيف، فدعنى أنادى على فيليب. إنه يجب أن يجب أن يراك أيضاً.

ـ ماذا، ذلك الشخص المشوّة! وما فائدة مشاهدته لها؟

قال توم:

-أوه، انه يعرف الكثير عن القتال. وكيف كانوا يحاربون بالنبال و الأسهم و فؤوس المعارك.

قال مستر بولتر وهو يسدد سيفه فى الهواء بشكل رائع.

ـ دعة يأتى إذن وسأريه أمرا مختلفا عن نباله وسهامه!

ركض توم إلى فيليب. كان جالسا أمام البيانو يعزف عليه ويغنى... مندمجا فى سحر موسيقاه وسعيدا للغاية.

وصاح توم فى اندفاع:

ـ تعال يافيليب، ولاتظل هنا تزأر «لا... لا... لا» تعال لترى بولتر العظيم وهو يؤدى تمرينات السيف فى الساحة.

لقد تحطم سحر الموسيقى بشكل وقح... تحطم بطريقة حمقاء لامعنى لها، لأن توم كان يعرف (إذا كان قد فكر للحظة واحدة) أن فيليب كان يكره حتى أن يسمع عن دروس التدريب.

وامتقع وجه فيليب وقال بعنف:

ـ هيا انصرف، أيها الأحمق الكبير! لا تأت صارخا فىّ، لأنك لاتصلح للحديث مع الجماد!

وجعل ذلك توم غاضبا أيضا، وقال:

ـ أنا أصلح للحديث لامن هو أفضل منك. أنت

تعرف أننى لن ألكمك لأنك لست أفضل من أية فتاة لكنى أنا ابن رجل شريف، بينما أبوك وغد.... وكل انسان يقول ذلك!

واندفع خارجا من الحجرة وأغلق الباب خلفه فى صوت مرتفع.

نزلت مسز ستيلنج من حجرتها لتكتشف سبب الضجة فوجدت فيليب جالسا على الأرض وهو يبكى بمرارة

ـ ما الأمر، واليكم؟ لماذا كل هذه الضوضاء؟

تطلع فيليب إلى أعلى وجفف دموعه بسرعة، وقال:

تطلع فيليب إلى أعلى وجفف دموعه بسرعة، وقال:

ـ أنه توليفر، لقد أتى يطلب منى أن أخرج معه أننى لست على مايرام! عندى ألم

عاد توم إلى الساحة حيث كان مستر بولتر يؤدى تمرينات السيف للمعجب الحميم، الذى كان هو نفسه. ولم يلحظ عودة توم، وهو يصيح:

ـ جاهز! اقطع! صوّب! احترس! واحد... اثنين... ثلاثة!

قال توم عندما انتهى العرض:

ـ مستر بولتر، أتمنى أن تقرضنى سيفك لأحتفظ به لفترة وجيزة..

***

فصل ١٥

زيارة ماجى الثانية

ظلت هذه المشاجرة الأخيرة بين الولدين مدة أطول من المعتاد لقد كان توم وقحا وخشنا، فلقد لمس أرق نقطة فى فيليب، وسبب له ألما كبير كما لو أنه قصد أن يجرحه. ورأى توم أنه ليس هناك مدعاه لعدم عقد صلح بعد هذه المشاجرة كما قد فعلا من قبل بعد مشاجرات أخرى كثيرة.... وذلك بالتصرف وكأن شيئا لم يقع. ورلكن بعد فترة رأى أن محاولاته فى أن يكون ودوداً لم تأت بنتيجة، فقرر ألا يطلب من فيليب ابدا أن يعمل له أى شئ ثالنية... لا لغة لاتينية، ولا صور، ولاقصص، ولا أى شئ. وظلا مؤدبين فقط ويتعامل كل منهما باحترام نحو الآخر لمنع مستر ستيلنج من ملاحظة أى شيء.

عندئذ جاءت ماجى فلم تستطع أن تقاوم النظر إلى زميل توم الجديد باهتمام وصلت فى منتصف اليوم الدراسى وكانت حاضرة أداء فيليب لدروسه مع ممستر ستيلنج وبقد قام توم فى خطاباته:

ـ فيليب يعرف الكثير من القصص... وهى ليست قصصا سخيفة مثل قصصك.

فمن هذا ومن مراقبته وهو يؤدى دروسه، كانت متأكدة من انه ماهر جدا. وأملت أن يفكر فيها على أنها ماهرة أيضا عندما تتحدث معه. وكان لديها نوع من الجنان لكل ماهو مشوّه، فكانت تفضلّ الحملان الملتوية أعناقها، لأن الحملان التى كانت قوية وسليمةج لم تكن تهتم بالترتيب والملاطفة والحب. وتمنت كثيرا أن يهتم توم بحبها له.

قالت عندما خرجا من المكتبة إلى الحديقة:

ـ اعتقد أن فيليب واكيم يبدو ولدا لطيفا.

فقال توم باختصار:

ـ أوه، انه شخص غريب. وهو غاضب منى جدا لأنى قلت له أن زياه كان وغدا لكن ففى هنا وحدك لبضع دقائق ياماجى، هل تسمحين؟ لدى ماأريد أن أفعله فى الطابق العلوى.

فـقـالت مـاجى التى، فى أول يوم من اللقـاء ثانيـة، أصـبت حماية توم:

ـ إلا أستطيع القدوم معك؟

قال توم وهو ينسل صاعدا للطابق الأعلى:

ـ لا، أنه أمر سأخبرك به فيما بعد.. وليس الآن.

وبعد الظهر كان الصبيان مع كتبهم فى المكتبة فكان توم يقرأ فى كتـابه اللاتينـى، مـحـرك شـفـتيـه وكـأنه يرتل صلوات، وكان فيليب فى الطرف الأخر من الحجرة، منهمكا فى كتاب كبير جعل ماجى كلها فضولا. وعندما رفع فيليب بصرع عن كتابه، التقى بعينين داكنتين مستسفرتين مثبتين عليه. واعتقد أن أخت توليفر تبدو شيئا صغيرا لطيفا، مختلفة تماما عن أخيها، وتمنى لو كان لديه أخت.

قال توم أخيرا، مغلقا كتبه ويصفهم بجانبه بسرعة:

ـ اقول ياماجى، لقد زديت ماعلى من دروس الآن. تعال الى الطابق العلوى معى.

قالت ماجى عندما خرجا من المكتبة:

ـ مالأمر؟

وتذكرت زيارة توم السابقة للطابق العلوى أصبحت مرتابة، فقالت:

ـ أنها ليست حيلة ستلعبها معى، أليس كذلك؟

قال توم بأحلى نبرة لديه:

ـ لا، لا ياماجى، انه شئ ستحبيه جدا.

ووضع ذراعه حول عنقها ووضعت ذراعها حول خصره، وصعدا السلم سويا.

ـ أقول ياماجى، لايجب أن تخبرى أحداً، تعرفين.... وإلاّ سوف أعاقب.

قالت ماجى، معتقدة أن توم يحتفظ بأرانب سراً:

ـ هل هى حية؟

قال:

ـ أوه، لن أخبرك. اذهبى الآن لى ذلك الركن واغلقى عينيك أثناء ماأستعد وسأخبرك متى تنظرين. لايجب أن تصرخى، زفهمت؟

قالت ماجى:

ـ أوه، لكن اذا أضفتنى، فسأصرخ

ـ لن أضيفك، والآن اغلقى عينيك... ولا تنظرى.

استخدم توم عصاة محروقة ليعطى لنفسه حاجبين اسودين عريضين وذقنا. وربط منديلا أحمر حول رأسه وأخر عبر صدره. ثم أخذ السيف وأمسك به، وسنه متجها نحو الأرض وقال:

ـ ماجى انظرى الآن!

نظرت ماجى واندهشت للحظة، واستمتع توم بشكل عظيم بنظرة اندهاشها. ثم ضحكت وقالت:

ـ أوه، توم، لقد جعلت من نفسك شبيها لذى اللحية الزرقاء على المسرح.

كان من الواضح لقوم أن ماجى لم تأخذ السيف بشكل جدى فرفع السيف وصوبه نحوها، فقالت وهى تتراجع، بعيدا عنه:

ـ أوه، توم، من فضلك لاتفعل ذلك! سوف أصرخ.... اعرف ذلك. أوه لا! لا ليتنى ماصعدت!

قال، وهو يخطو للأمام والسيف مازال مسلطا نحو ماجى:

ـ أنا ولينجتون! إلى الأمام سر!

فامتلأت عيناها بالدموع وصعدت فوق السرير كملاذ وحيد لافساح المكان بينهما. وبدأ توم يستعرض التمرينات بالسيف مستخدما كل قوته:

- اقطع صوب! اخترس! واحد...

قالت ماجى:

- توم، أنا لن أتحمل هذا. سوف أصرخ، ستجرح نفسك. ستقطع رأسك!

قال توم:

- اثنان.... ثلاثة.

عند «اثنين» ارتعش ذراعه، وعند «ثلاثة» انطلق السيف إلى أسفل. وأطلقت ماجى صرخة مدوية. لقد سقط السيف بسنه المدبب على قدم توم، وبعد لحظة واحدة، سقط هو أيضا.

وقفزت من السرير وهى لاتزال تصرخ. واندفعت خطوات أقدام نحو الحجرة.

وجدها مستر ستيلنج تهز توم بجنون، لقد ظنت انه مات، الطفلة السميكة ومع ذلك كانت تهزه وكأنها ستعيد له الحياة.

وفى لحظج أخـرى كـانت تنتـحب من الفرح لأن توم قـد فتح عينيـه.... ولم تستطيع أن تأسف على أنه قد جرح قدميه، وبدا وكأن السعادة كلها تعتمد على أنه حى.

***

فصل ١٦

نهاية المشاجرة

تحمل توم ألمه المبرح مثل البطل، لكن كان هناك خوف ظيع في عقله.. فكرة مخيفة جدا لم يجرؤ حتى أن يلقى سؤال قد تكون اصابته المفجعة (نعم). ولم يتجاسر على الاستفسار من الطبيب أو من مستر ستيلنج:

- هل سيصبح قدمى مشوها؟

وتحكم فى نفسه لكى لا يصرخ من الألم عندما كانوا يغسلون له الجرح كل يوم، ولكن عندما ترك بمفرده مع ماجى بجوار سريره، انتحب الطفلان سويا ورأسهما على نفس الوسادة. كان توم يفكر فى نفسه ساحبا قدما مشوها وراءه أثناء مشيه، وماجى، التى لم تخمن ما كان يدور فى رأسه، أخذت تبكى لتعطيه

احساسا بالصحبة. ولم يخمن مستر ستيلنج ولا الطبيب وذلك الخوف الذى كان فى ذهن توم. لكن فيليب شاهد الطبيب وهو ينصرف ويغادر المنزل، ثم ذهب إلى مستر ستيلنج وسأله ذلك السؤال الذى لم يجرؤ توم على سؤاله:

- معذرة يا سيدى، هل الطبيب قال أن قدم توليفر سوف تلتئم تماما أم أنها سوف.. تصبح مشوهة؟

- أوه، لا ، أ وه، لا. سوف تلتئم وتصبح كما كانت. لكن بالطبع تأخذ وقتا.

- هل قال لتوليفر ذلك؟

- لا، لم يقل شيئا فى هذا الموضوع.

- اذن، هل يمكننى أن أخبره يا سيدى؟

- نعم، طبعا، أظن انه قد يكون قلقا بخصوص ذلك، اذهب إلى حجرة نومه، لكن بهدوء...

ومشى فيليب فى وجل إلى سرير توم، وقال:

يقول الطبيب أنك ستعود وكما كنت قريباً يا توليفر.

- هل عرفت ذلك؟ لقد سألت لتوى مستر ستيلنج، وهو يقول أنك ستمشى كالمعتاد عندما يلتئم الجرح.

شعر توم بتوقف مفاجئ فى تنفسه، ثم أطلق تنهيده طويلة، وأدار عينيه الزرقاوين على وجه فيليب، حيث أنه لم يفعل ذلك لمدة عشرة أيام أو أكثر. أما بالنسبة لماجى... فلم تفكر فى هذا الاحتمال، ولكن الفكرة جعلتها تبكى ثانية، فقال توم بحنان، شاعراً أنه شجاع جداً الآن:

- لا تكونى بلهاء يا ماجى، سأتحسن قريبا..

فقال فيليب مادا يده الصغيرة الرقيقة، التى صافحها توم بيده القوية:

- مع السلامة يا توليفر.

وقال توم:

- اقول، اطلب من مستر ستيلنج أن يدعك تأتى وتجلس معى أحيانا، يا واكيم ... لتحكى لى تلك القصص الاغريقية.

* * *

فصل ١٧

فيليب وماجى

كان فيليب يقضى الآن كل وقته، خارج ساعات المدرسة، مع توم وماجى. واستمع توم باهتمام عظيم لقصة جديدة لفيليب عن رجل يدعى فيلوستيتس، الذى أصيب بجرح شديد فى قدمه وبكى كثيرا حتى أن رفاقه وضعوه فى جزيرة وليس معه شئ سوى بعض السهام السامة لصيد الحيوانات ليتغذ عليها.

قال توم:

- أنا لم أصرخ أبدا، وأنا متأكد أن قدمى كانت فى نفس السوء مثل ساقه. الجبناء فقط هم الذين يصرخون عندما يصابون.

وسألت ماجى إذا كان فيلو ستيتس له أخت، ولماذا لم تذهب معه إلى الجزيرة ؟

وفى يوم ما، بعد ما حكى فيليب هذه القصة، كان هو وماجى فى المكتبة سويا. وكان فيليب منكبا على كتبه. وأخذت ماجى تتجول فى أرجاء الحجرة، ثم ذهبت واستندت على منضدة قريبة من فيليب لترى ما كان يفعل .. لقد أصبحا صديقين الآن. قالت:

- ماذا تقرأ باللغة اليونانية؟

فقال متطلعا اليها:

- عن فيلوستيتس.

وبعد لحظة أردف قائلا:

- ماجى. اذا كان لديك أخ مثلى، هل تعتقدين أنك كنت تحبينه مثل توم؟

شردت أفكار ماجى، فقالت:

- ايه؟ .. أوه، أفضل. لا، ليس أفضل من توم، لكن كنت سأشعر بالأسف ... بالأسف من أجله.

فامتقع وجه توم، واظهرت عيناه كم قد جرحته.

وأحست ماجي أنها قد قالت التعبير الخطأ، فأضافت بسرعة:

- لكنك موهوب جدا يافيليب، ويمكنك أن تعزف الموسيقى وتغنى، أتمنى لو أنك كنت أخى فعلا.

قال فيليب:

ـ لكنك سترحلين قريبا، وستنسين كل شئ عني.

وعندما أراك بعدما تكبرين، سوف لا تكادين تلاحظينني.

قالت ماجى:

ـ أوه، لا، أنا لن أنساك، أنا متأكدة. أنا لا أنسى أى شيئ. أنا أفكر فى كل شخص عندما أكون بعيدة عنهم. أنا أفكر فى المسكين ياب... ان لديه حنجرة مريضة، ولوق يقول أنه سوف يموت .. لكن لا تخبر توم بذلك. انك لم تر ياب... انه كلب صغير جميل.

فقال فيليب مبتسما:

ـ هل تهتمين بى قدر ما تهتمين بياب؟

فقالت ماجى، ضاحكة:

ـ أوه، نعم، طبعا!

قال فيليب:

ـ أنا مغرم بك جدا يا ماجى، فلن أنساك أبداً.

عندما أكون تعيسا سأفكر فيك دائماً وأتمنى لو كانت لى أخت بعينين داكنتين مثل عينيك.

قالت ماجى بشكل حزين بعض الشئ.

- لماذا، أعتقد أنك مغرم بى أكثر من توم.

ووضعت ذراعيها حول عنقه وقبلته، قائلة:

- سوف أذكرك دائما وسأقبلك عندما أراك ثانية، حتى بعد وقت طويل.

جاء مستر توليفر بعد بضعة أيام ليأخذ ماجى.

فقالت ماجى:

- أوه يا أبى، أن فيليب واكيم صديق طيب جدا لتوم، وهو بارع جدا . أنا أحبه... وأنت تحبه أيضا يا توم. أليس كذلك؟

بدا توم مرتبكا بعض الشئ. ونظر لأبيه، وقال:

لن نكون أصدقاء بعدما أترك المدرسة، لكننا أنهينا مشاجرتنا الآن، ومنذ أن أصيبت قدمى. لقد علمنى لعب الشطرنج، وأحيانا أتغلب عليه.

قال مستر توليفر:

ـ حسن، حسن، اذا كان طيبا معك، فرد ذلك له، وكن طيبا معه. انه مسكين، مخلوق مشوه، ويشبه المرحومة والدته. لكن لا تكن حميما فى صداقتك له، فدم أبيه فيه هو أيضا، والدم الفاسد يظهر نفسه فى الانسان، كما فى الجياد. لا تثق أبدا فى الدم الفاسد!

* * *

فصل ١٨

نهاية الطفولة

أصبحت ماجى فى سن الثالثة عشرة وكانت تنمو بسرعة. كانت فى مدرسة الآنسة فيرنس مع ابنة خالتها لوسى. وفى خطاباتها الأولى إلى توم كانت دائما ترسل حبها لفيليب، وتسأل أسئلة كثيرة عنه... التى لم يكن يجيب عليها توم عادة. وكانت تحزن عندما تسمع توم يقول فى العطلات ان فيليب مازال غريب الأطوار، وكانت تلاحظ أنهما لم يعودا أصدقاء. ولم تر فيليب ثانية لمدة طويلة، لأنه كان دائما بعيدا فى الصيف. وعندما تقابلا، كانت «ليدى صغيرة» تماماً، وصافحته يدا بيد.

لجأ مستر توليفر للقانون ضد مستر بيفارت، وكان واكيم محامى بيفارت. ولاحظت ماجى أن مجرد ذكر اسم واكيم كان يشيط أباها غضبا، وكان يقول لتوم:

ـ لا تختلط كثيرا مع واكيم الصغير فى المدرسة.

ولم يجد توم صعوبة فى ذلك، حيث أصبح لستيلنج تلميذان آخران.

لقد وصل توم إلى النصف الثانى من العام الآخير بمدرسة ستيلنج. لقد أصبح شابا يافعا طويلا الآن. يقف معتدلا ويمشى بطريقة رجولية، وعندما يتكلم فكان ذلك خليطا من الهيابة والفخار، الذى كان فيه ما يبعث على الرضا والسرور.

ولقد غادر فيليب المدرسة وذهب إلى جنوب فرنسا من أجل صحته. ولقد ساعد هذا على اعطاء توم هذا الشعور بعدم الاستقرار الذى يعتبر عاديا فى الشهور الأخيرة للمدرسة. وكان هناك، أيضا، بعض الأمل فى موضوع أبيه بأن يحل قريبا فى القضاء، وجعل ذلك فكرة العودة إلى البيت مستساغة أكثر لتوم. لأن توم، الذى قد استمع للموضوع من جانب أبيه فقط، لم يكن لديه أى شك فى هزيمة بيفارت.

كانت الساعة التاسعة فى صباح بارد قرب نهاية نوفمبر، وكان توم جالسا فى المكتبة، عندما دخلت مسز ستيلنج لتخبره أن أخته موجودة فى حجرة الجلوس.

أصبحت ماجى طويلة الآن، تكاد تكون فى طول توم، وكانت تبدو أكبر منه بالفعل فى هذه الآونة. لقد خلعت قبعتها وكان على وجهها ملامح تعب ونظره اجهاد غريبة، عندما التفتتت عيناها بقلق شغوف نحو الباب.

وعندما دخل توم لم تتكلم، ولكن ذهبت فقط اليه، ووضعت ذراعيها حول عنقه وقبلته.

قال توم:

- لماذا أتيت مبكراً هكذا فى هذا البرد القارس يا ماجى؟

ولماذا لست فى مدرستك؟ العطلات لم تبدأ بعد!

قالت ماجى بارتعاشة خفيفة فى شفتيها:

- ارادنى أبى بالبيت. اتيت البيت من ثلاثة أو أربعة أيام.

قال توم قلقا بعض الشئ:

- أليس أبى بخير؟

قالت ماجى:

- ليس تمام، انه تعيس جدا، ياتوم. ذلك الموضوع... بيفارت ... اتيت لاخبرك، فمن الأفضل لك أن تعرف قبل مجيئك للبيت...

قفز توم من فوق كرسيه ووقف أمام ماجى، وقال:

ـ هل خسر أبى القضية؟

قالت ماجى متطلعة اليه:

ـ نعم، عزيزى توم.

وقف توم صامتا لدقيقة أو دقيقتين، وعيناه مثبتتان على الأرض، ثم قال:

ـ على أبى أن يدفع مبلغا جسيما من المال، اذن؟

قالت ماجى بشكل خائر؟

ـ نعم .. أوه، توم، انه يخسر الطاحونه والأرض وكل شئ لن يترك له شيئا.

ومضت عينا توم بنظرة اندهاش نحوها، ثم شحب لونه وارتعش. ولم يقل شيئا، لكنه جلس ثانية وسرح ببصره عبر النافذة بلا هدف. لم يكن توم قلقا مطلقا على المستقبل، لقد فكر دائما فى أبيه كرجل غنى، ولم يحلم مطلقا أنه قد لا يستطيع دفع ديونه.. الناس «المحترمون» لا يتصرفون بهذا الشكل وكان لديه احساس قوى بالاحترام فى عائلته.

كان لصوت توم النبرة العميقة للرجولة، لكن أفكاره كانت لاتزال أحلاما صبيانية.

خافت ماجى من صمت توم الشاحب المرتعش.

فألقت بذراعيها حوله أخيرا، وقالت:

- أوه عزيزى، عزيزى توم، لا تحزن هكذا، حاول ان تتحمل برباطة جأش.

استدار توم نحوها، والدموع تتجمع فى عينيه، فمسحها بيديه، وقال:

- سأذهب معك للبيت يا ماجى. ألم يقل أبى أن أحضر؟

أجابت:

- لا يا توم. أبى لم يقل ذلك.

ترى ماذا يفعل لو قلت له كل شئ؟ واردفت قائلة:

- لكن أمى تريدك أن تأتى. أمى المسكينة!... أنها تبكى كثيرا. أوه توم، ان الوضع سئ بالبيت.

إزدادت شفتا ماجى بياضا، وبدأت ترتعش تقريبا مثل ما فعل توم. وعندما تكلمت ثانية كانت وكأنها همسة واهنة:

- و.. و... أبى المسكين...

ولم تستطع أن تقولها:

ودخلت فكرة السجن ذهن توم، فقال بصبر نافذ:

- أين أبى؟ اخبرينى يا ماجى.

قالت ماجى.

- انه بالبيت، لكن...

ثم أضافت بعد برهة:

- انه.. ليس هو .. لقد سقط منى على جواده... ولم يتعرف على أحد سواى من وقتها... ويبدو أنه فقد حواسه أوه، أبى، أبى...

أحكم توم ذراعه حول ماجى. وكان وجهه أبيض بلا دموع، ولم تر عيناه شيئا، وقالت ماجى أخيرا:

- يجب أن نذهب يا توم، فأبى سيفتقدنى فنهض توم، وقال:

- انتظرنى دقيقة واحدة، يجب أن أتكلم مع مستر ستيلنج ثم نذهب.

* * *

فصل ١٩

ماذا قد حدث

عندما علم مستر توليفر أن ذلك الحكم قد أصبح ضده، وأن بيفارت وواكيم قد انتصرا، اعتقد الكل فى البداية أنه تحمل الصدمة برباطة جأش. واعتقد ذلك هو نفسه، اعتقد انه لو واكيم وبيفارت تخيلا أنه قد انسحق فسوف يبين لهما أنهما على خطأ تام. طبعا أدرك أن تكاليف الموضوع سوف تأخذ مزيدا من المال عما يملك. لكن كان هناك فورلى، الذى اقرضه المال برهن أرضه. لقد عقد اتفاقا مع فورلى أنه إذا لم يسترد المال فى غضون عشرين سنة، فمن حق فورلى أخذ الأرض. من المؤكد أن فورلى سيكون سعيدا لشراء الاقطاعية كلها ومن ضمنها الطاحونة، ومن المؤكد أن يحتفظ بمستر توليفر لادارتها له. بأجر زهيد. كان فورلى رجل اعمال وسوف يرى أن هذه ستكون

فرصة مربحة جدا له. وتحدث مستر توليفر مع مستر جور، محاميه، عن هذا بعد خروجهما من المحكمة، وطلب منه أن يقابل مستر فورلى فوراً. ووعده مستر جور أن يلتقى بفورلى فى الصباح التالى. ثم امتطى مستر توليفر جواده عائدا للبيت.

وعند مروره على مكتب البريد وقف. كان يشتاق أن يحظى بماجي بالقرب منه... ولم يدر لماذ. فأرسل خطابا إلى مدرسة الآنسة فيرنس الذى يسلم في نفس الصباح، قائلا أنها يجب أن تعود حالا... غداً. وارتعشت يده وهو يكتب.

انفجرت مسز توليفر بالدموع عندما أبلغها الخبر، وكان غاضبا منها وقال لها أنه لا يوجد شئ لتحزن عليه، وأنه لن يجد صعوبة فى مواجهة التكاليف.

وفى اليوم التالى كان مستر توليفر فوق جواده بعد الظهر، فى طريقة إلى مكتب مستر جور بسانت أوج. وكان على مستر جور أن يلتقى بفورلى فى الصباح.

لكن مستر توليفر لم يقطع إلانصف الطريق عندما قابل كاتبا من مكتب مستر جور، الذى قال:

- لقد تم استدعاء مستر جور خارج مكتبة فى أمر هام، ولم يستطع أن ينتظر علاقاتك. وسيستطيع أن يراك فى الحادية

عشرة صباح غد. ولقد ارسل لك، في الوقت الحاضر، هذه الرسالة.

قال مستر توليفر، آخذ الرسالة ولكن لم يفتحها:

- أوه، قل لمستر جور أنى سأقابله غداً.

واستدار بجواده.

لاحظ الكاتب نظرة مسز توليفر الثائرة، وراقبة لبضع دقائق، ثم انصرف. وضع مسز توليفر الرسالة فى جيبه، على أن يفتحها فى البيت... فالقراءة كانت ليست عملية سهله بالنسبة له. وبعد ذلك فكر أنه قد يكون بالرسالة أمر ما لا يجب أن تعرفه مستر توليفر، ومن الأفضل بالنسبة لها ألا تراها.

فأوقفت جواده، واخرج الرسالة وقرأها. وكانت رسالة مقتضبه:

«لقد علمت من مصدر سرى، لكن موثوقاً به، أن فورلى كان مؤخرا فى ضائقة مالية، وباع كل أملاكه، ولقد باع حقوقه فى املاك توليفر إلى... واكيم.

وبعد نصف ساعة وجده حوذى عربته ملقيا على جانب

الطريق، فاقد الوعى، والرسالة المفتوحة بالقرب منه، وجواده الرمادى واقفا بجانبه. فحمله إلى البيت وتم استدعاء د. تورنبول.

وقبل وصول ما جى للبيت كان أبوها قد استرد وعيه. وهمس بشئ عن الرسالة. فاحضروا له رسالة جور ووضعوها على السرير. وظل راقدا لفترة وعيناه مثبتتان عليها وكأنه يحاول أن تساعده فى تجميع أفكاره ثم بدت موجة من الذكرى تأتى وتحل محل أخرى. وأدار عينيه إلى الباب وكأنه يحاول أن يرى شيئا من خلال عتمة عينيه، وأخذ يهمس:

ـ ابنتى الصغيرة.

واخذ يردد من وقت لآخر:

ـ ابنتى الصغيرة.

وهو فاقد الوعى عن كل شئ حتى عن زوجته. وركضت مسز توليفر إلى البوابة مرات كثيرة لترى اذا كانت ماجى قادمة.

وأخيرا وصلت، فقالت ماجى بشفتيها الشاحبتين عندما جاءت امها اليها باكية:

ـ أوه، أمى، ما الأمر؟

وجاء د. تورنبول لملاقاتها. وركضت ماجي نحو الصديق القديم الحنون الذى تذكره منذ نعومة أظفارها، واجاب على نظرتها المستفسرة المرتعشة قائلا، وهو يمسك يدها:

- لا تنزعجي كثيرا يا عزيزتي. لقد أصيب والدك بمرض مفاجئ، ولم يستعد ذاكرته تماما. لكنه كان يسأل عنك، ومن الأحسن له أن يراك، احتفظى بهدوئك على قدر الامكان.

كانت عينا والدها على الباب عندما دخلت، قرأت فيهما تلك النظرة الغريبة الطواقة العاجزة، التى كانت تنتظر وصولها. وبحركة مفاجئة رفع نفسه فى السرير، وركضت هى اليه والقت ذراعيها حوله فى نوبة انفعال من الدموع والقبل.

لكن هذا التوهج فى الادراك كان كثيرا عليه، فارتد جامداً فاقد الوعى على السرير ثانية.

وارادت مسز توليفر أن يحضر توم للبيت. وجلست تبكى فى الليل وتقول:

- ابنى المسكين ابنى المسكين، يجب أن يأتى للبيت.

فقالت ماجي:

- دعينى أذهب اليه وأخبره. سأذهب غداً صباحاً..

وذهبت ماجى الصباح التالى.

واثناء قدومهما فى الطريق كان الأخ والاخت يتكلمان مع بعضهما فى همس.

قالت ماجى:

- يقولون أن مستر واكيم قد اشترى الدين على الأرض، يا توم، ويمكنه الاستحواذ عليها. انها الرسالة التى بها هذا الخبر التى جعلت أبانا مريضا، على ما أعتقد.

قال توم:

- أعتقد أن الوغد كان يخطط طول الوقت فى تدمير أبى. عندما أصبح رجلا سأجعله يأسف لذلك! لا يجب أن تتكلمى مع فيليب ثانية.

- آوه، توم! أنا....

لكنها سكتت، فلم يبق فيها مكان لشجار.

* * *

فصل ٢٠

كنوزمسزتوليفر

عندما وصلت ماجى كان قد مضى خمس ساعات منذ أن خرجت، وكانت تفكر ببعض الارتعاش أن أباها لعله قد افتقدها وأخذ يسأل عليها.

اسرعت مهرولة وكانت على وشك فتح الباب عندما لحقها توم، وتطلعا سويا فى حجرة الجلوس. وكان يوجد رجل خشن المظهر جالسا في كرسى والدها، وبجانبه زجاجة وكوب.

فومضت الحقيقة فى ذهن توم على الفور. وعرف ما معنى هذا. كان رجال القضاء فى المنزل. سوف تباع عائلة توليفر المفلسة. لقد سمع بمثل هذه الأشياء. انها جزء من العار وبؤس ضياع مال الانسان وافلاسه.

قال الرجل، وهو ينزع الغليون من فمه:

- كيف حالك يا سيدى.

وانصرف توم بسرعة بدون كلام، فالمنظر كان قميئا جدا:

ولم تفهم ماجى، فسألت:

- من هذا يا توم؟ ما الأمر؟

ثم اندفعت إلى الطابق الأعلى ودخلت على أبيها.

كان ابوها راقدا وعيناه مغلقتان كما كان عندما غادرته. وكانت الخادمة هناك وليست امها. فهمست مستفسرة:

- أين أمى؟

ولم تعرف الخادمة. وتسللت ماجى من الحجرة، وقالت لتوم:

- ابى يرقد فى هدوء، دعنا نذهب ونبحث عن أمنا. لا أدرى أين هى!

لم تكن مسز توليفر فى الطابق السفلى... كما لم تكن فى أى من حجرات النوم. لم يكن هناك إلاحجرة أخرى واحده انها

حجرة الخزين حيث تحتفظ أمها بكل أشيائها، الثمينة، التى كانت لا تفض ولا تظهر الا فى المناسبات الخاصة.

فتح توم باب حجرة الخزين وقال على الفور:

- أمى!

كانت مسز توليفر تجلس بين كل كنوزها المدخرة بحرص. وكانت احدى الخزانات مفتوحة. وكان ابريق الشاى الفضة ظاهرا من بين الورق الذى يغطيه، والطقم الصينى الفاخر والملاعق الفضية منثورة على المائدة، وكانت المرأة تهز رأسها على العلامة، اليزابيث دودش، المكتوبة على طرف مفرش المائدة الذى تمسك به فى يدها.

فألقت به ووقفت عندما تحدث توم، وقالت:

- أوه يا ولدى، يا ولدى، لم أتوقع أبداً أن أرى هذا اليوم! لقد تحطمنا .. كل شئ سيباع. ولن يبق لنا شئ. وسنصبح شحاذين. أنظر إلى مفارش المائدة هذه التى عملتها بنفسى وطرزت الاسم فى طرفها. وستباع جميعها... وتذهب إلى منازل أناس غرباء، وربما تقطع بالسكاكين.

قال توم بعنف:

- لكن هل ستسمح خالاتى أن تباع الأشياء، يا أمى؟ هل يعرفن عن ذلك؟

- نعم ، أرسلت لهن فى الحال، وخالتك بوليت كانت هنا، ولكنها صرخت وصرخت وقالت أن أباك قد جلب العار للأسرة. وقلت له كثيرا، «مهما فعلت، فلا تذهب للقضاء». .. وماذا أفعل أكثر من ذلك؟ أنى لم أكن أقلق كثيرا اذا امكننا الاحتفاظ بالاشياء التى عليها اسمى. زوج خالتك جليج أيضا، يقول أن الأشياء يجب أن تشتريها العائلة، لكن لابد أن يتكلم مع خالتك أولا، وسيأتون كلهم لمناقشة الموقف. لكنى أعرف أنه لا أحد منهم سوف يشترى هذه الأكواب لانهم جميعهم وجدوا فيها بعض العيوب عندما اشتريتها، انهم لا يعجبون بها. لقد إشتريتها من مالى الخاص... والدك لم يدفع ثمنها. أوه، لماذا تزوجنى وأتى بى إلى هذا؟

وانفجرت فى البكاء.

استمعت ماجى لهذا الحديث بغضب مكتوم.

لماذا يلومون والدها الذى يرقد فى سريره كالميت الحى؟ وصاحت:

ـ أمي، كيف تتحدثين بهذا الشكل؟ .. وكأنك تهتمين فقط بالأشياء. كيف يمكنك أن تهتمي بأى شئ غير أبى العزيز نفسه... بينما هو راقد هناك وربما لن يكلمنا ثانية أبداً؟ توم يجب أن تقول هذا، أيضا. ولا يجب أن تدع أى أحد يبحث عن أخطاء أبى.

كان توم مصدوما بجيشان ماجى العاطفى.. وهي تقول له ولأمه ما يجب عمله! لكن بعد برهة ذهب ودخل حجرة أبيه، وامتلأ قلبه بالأسف، وجلس بجانب السرير. وذهبت ماجى اليه ووضعت ذراعها حول عنقه، ونسى الطفلان كل شيء آخر بمعنى أن لهما ابا واحدا ومحنة واحدة.

* * *

فصل ٢١

مجلس العائلة

(يجب أن نفعل كل ما فى استطاعتنا)

كانت الساعة الحادية عشرة فى الصباح التالى عندما جاءت الخالات وأزواجهن.

لم يأت مستردين... حيث رحل فى عمل ما، لكن مسز دين ظهرت فى عربة جميلة جديدة مع خادم أنيق يقودها. وكانت أول من وصل.

قالت مسز توليفر عندما قابلتها:

ـ أوه يأختى ، ماهذا العالم! وما هذا العناء!

فأجابت مسز دين!

- نعم، ونحن لا نعرف اليوم ما سيحدث غداً. لكن لابد أن نواجه مشاكلنا بشجاعة.

ألقت مسز دين خطبا معتبرة فى مثل هذه المناسبات، وكانت تعيدها فيما بعد على زوجها، وتسأله اذا كانت قد تحدثت بشكل مناسب.

وجاء مستر ومسزجليج بعد ذلك، وتبعهما مباشرة مستر ومسز بوليت. ودخلت مسز بوليت وهى تصرخ كالمعتاد. وكانت مسز جليج ترتدى ملابس سوداء وكأنها فى جنازة.

قال مستر جليج:

- حسن، وكيف حال الرجل المسكين الراقد فوق؟

قالت مسز توليفر:

- د. تورنبول يعتقد أنه أفضل اليوم. بدأ يعى أكثر، وتحدث معى، لكنه لم يتعرف على توم بعد. انه ينظر إلى الولد المسكين كأنه غريب، لكنه قال ذات مرة شيئا عن توم والجواد الصغير.

قال مسترجليج بحنان:

- حسن، يجب أن نفعل كل ما فى استطاعتنا. عندما تباع الأشياء يجب علينا جميعا أن نشترى ما يكفيك يا مسز توليفر...

الأشـيـاء المفـيـدة ... المـائدة، كـرسـى أو اثنان، أشـيـاء المطبخ، والسرير.

قالت مسز توليفر بشغف.:

- أود لو اشـتريتم أوانـى الشاى الفضيـة ومفارش المائدة التى عليها اسمى.

فسأل مستر بوليت:

- الم يراك مسـتر ومسز موسى؟ لقد فعل مسـتر توليفر الكثير من أجلهما، واذا كان قد أقرضهما مالا، فيجب أن يدفعوه له.

قالت مسز توليفر:

- أوه يا عـزيز، أنا لم أخـبرهمـا أبدآ، وهما يعيشـان بعيـدا ولا يسمعان أى شئ الا عندما يذهب مستر موسى للسوق.

لعل مـاجى فكرت فـيـهـما، انهـا كـانت دائما مـغـرمة بعـمـهـا موسى.

توم وماجى يتكلمان

قالت مسز بوليت عند ذكر ماجى:

- لماذ طفلاك لا يدخلان؟ يجب أن يسمعا ما نقول.

فصعدت مسز توليفر إلى أ على لاحضار توم وماجى، اللذين كانا فى حجرة ابيهما، وعند نزولهم رأت باب حجرة الخزين فخطرت عليها فكرة، فتركت ابنها وابنتها ينزلان وحدهما.

وظهرت الخالات وأزواجهن. أنهم كانوا فى مناقشة حامية عندما دخلا. وقاما بالمصافحة فى صمت، إلى أن قال مستر بوليت عندما اقترب توم منه:

- حسن أيها الشاب، لقد كنا نتحدث عنك. يجب أ ن يكون تعليمك مفيداً الآن، على ما أعتقد.

وقال مستر جليج:

- نعم، الآ ن هو الوقت الذى تظهر لنا قيمة تعليمك.

دعنا نرى ان كنت تستطيع ان تفعل أ فضل منى.لقد كونت ثروتى بدون تعليم. لكنى أخشى أن الحياة الرغده والتعليم العالى ستجعل الوضع أصعب بالنسبة لك عما كان بالنسبة لى.

قالت الخالة جليج:

-آوه، لابد أن يفعل ذلك، سواء كان الوضع صعبا أم لا.

انه لا يستطيع أن يعتمد على اصدقائه ليعتنوا به، وماجى

يجب أن تقرر أن تكون متواضعة وتعمل، لأنه لا يوجد خدم يخدمونها الآن.

كان توم يبدو بعيدا جدا عن التواضع، وكان يستعد ليتولى شيئا.. عندما دخلت امه.

وكان فى يد المسكينة مسز توليفر ابريق الشاى الفضة.

وقالت لمسز دين وهى تضعه على المائدة:

- أنظرى يا أختى، فكرت ربما تحبين النظر اليه ثانية، حيث أنه مضى زمن طويل عندما رأيته آخر مرة. أكره أن يبتاعه أحد الفنادق... ابريق الشاى الخاص بى الذى قد اشتريته عند زواجى! واتخيله موضوعاً أمام المسافرين، واسمى عليه. انظرى! ... اليزابيث دودش... انه لعار على العائلة.

قالت مسز جليج:

- عار! العار أن تتزوجى رجلا جلب لك الفلس.

فقفزت ماجى من مقعدها، لا يجب أن يتكلم أحد ضد والدها.

فرأى توم انفعالها، فقال بعد أن نحاها جانبا:

- اهدئى يا ماجى.

ثم قال، ناظرا مباشرة إلى مسز جليج.

ـ خالتى، اذا كنت تعتقدين أنه عار على العائلة أن أشياء تباع، أليس من الأفضل منع ذلك؟ اذا كنت أنت وخالتى بوليت تفكران فى ترك أى مال لى ولماجى، أليس من الأفضل أن تعطياه الآن وتنقذا أمى من فقدان كل أثاثها؟

كان هذا الحديث لمحة جميلة من الشجاعة والادراك الحسن من ولد فى السادسة عشرة. فخيم السكون لعدة دقائق. وكان مستر جليج الأول فى الحديث، فقال:

ـ حسن أيها الشاب، انك تفهم الكثير، لكن يجب أن تتذكر أن خالاتك يحصلن على خمسة فى المائة على أموالهن وسيفقدن ذلك اذا فعلن ماقلت.

قال توم:

ـ استطيع أن أعمل وادفع ذلك كل عام. سأفعل أى شئ لانقاذ أمى من ضياع أشيائها.

قال مستر جليج:

ـ حسن!

فقالت زوجته بغضب.

ـ أوه، مستر جليج، لا أظنك تهب مالى. وأنت ايتها الاخت

بوليت افعلى ما يحلو لك، لكنى لماذا أهب مالى لأناس كانوا مبذرين؟

قالت مسز بوليت.

ـ أنا آسفة لأختى وطفليها، لكن لا فائدة لى أن أفكر فى عمل أى شئ اذا كنت لن تساعدى إنت أيضا.

امتلأت ماجى بغضب هائج، فانفجرت قائلة:

ـ لماذا جئتم اذن؟ تلومونا وتعنفونا، اذا لم تقصدوا عمل أى شئ لمساعدة أمى المسكينة... أختكم ... عندما أصبحت فى مأزق! ابتعدوا عنا، ولا تأتوا وتنقبوا عن أخطاء أبى. لقد كان أفضل من أى واحد منكم. لقد كان باراً، وكان سيساعدكم اذا كنتم فى ورطة. وتوم وأنا لا نريد أى من نقودكم. فنحن لا نحتاجها.

فقالت مسز بوليت:

ـ أنت لم تر نهاية مشاكلك مع تلك الفتاة يا بيزى.

فقال مستر جليج.

ـ هذا يكفى. لا تدعونا نضيع الوقت فى الكلام. هيا للعمل.

قالت مسز توليفر.

ـ لماذا، هاهى مسز موسى، لابد أن الخبر قد وصلها.

كانت مسز موسى تبدو مختلفة تماما عن الأخوات دود سن عندما دخلت الحجرة فى ملابسها الفقيرة الرخيصة. وبدت لم تعر أى أحد التفاتا فيما عدا توم. فذهبت إليه مباشرة وأخذته من يده، وقالت:

- أوه، يا طفلاى العزيزان، أنا عمة فقيرة لكما، لأنى ممن يأخذون كل شئ ولا يعطون شيئا. كيف حال أخى المسكين؟

قالت ماجى:

- د. تورنبول يعتقد أنه سيتحسن، إجلسى يا عمتى .

قالت مسز موسى:

- أوه، يا طفلتى، اشعر أنى ممزقة نصفين، فلدينا ثلاثمائة جنيه من مال أخى، وكلكم تريدون هذا المبلغ، ومع ذلك فنحن مفلسون.

قالت مسز جليج:

- ماهذا الجنون! لم يكن له حق فى اقراض ماله بتلك الطريقة، ولا اعتقد أنه يوجد أى ايصال أو ورقة تدل على ذلك.

فأجابت مسز موسى:

- نعم، زوجى أعطى أيصالا يثبت المبلغ.

فقال مستر جليج برفق:

- حسن، أليس لزوجك أى طريقة فى جلب هذا المبلغ؟ انه سيكون ثروة بالنسبة لهؤلاء الناس الآن.

- آوه يا سيدى، انك لا تعرف الحظ السئ الذى قابله زوجى فى مزرعته. لقد بعنا كل القمح، ولم ندفع الايجار.

قال مستر جليج:

- يجب ان تفكرى فى ذلك يا مسز موسى، ومن حقى ان أحذرك ، انه اذا اعلن مستر توليفر افلاسه، ولديه ايصال من زوجك بمبلغ ثلاثمائة جنيه، فسيجبرونه على الدفع. ولهذا من الأحسن ان تدفعوه الآ ن.

فقال توم رافعا رأسه فجأة:

- أيها الخال - لا أعتقد من العدل بالنسبة لعمتى أن تدفع المبلغ. فسيكون ذلك ضد رغبة والدى. اذكر تماما قبل ذهابى إلى المدرسة لمستر ستيلنج، أن أبى قال لى فى احدى الليالى: «لقد كنت دائما خيراً مع أختى رغم أنها تزوجت ضد رغبتى، ولقد أقرضت موسى نقوداً، لكنى لا يجب أن أجعله يسددها، وأفضل أن

أفقدها كلها. والآن والدى مريض ولا يستطيع التحدث عن نفسه... لكنى لا اعتقد أى شئ يجب أن يحدث ضد رغباته.

بدأ مستر جليج مندهشاً، وانتظر قليلا، ثم قال:

- عجيب، لا، ربما لا توم. لكن اذا كان الأمر هكذا، فلابد أن نمزق الايصال، كما تعرف.

قال الخال بوليت.

- نمزق الايصال! أنا لست متأكدا ان كانت هذه ليست جريمة.

قال توم، غير ملتفت للخال بوليت:

- آمل أن تساعدنى أن أفعل ذلك، يا خالى جليج.

أنا متأكد أن أبى قصدنى أن اتذكر ما قاله لى فى تلك الليلة.

حتى مسز جليج وافقت توم بشكل سرى عندما قام بهذا الدفاع المجيد، وشعرت أن دم دود سن كان بالتأكيد يتكلم على لسانه.

وقال مستر جليج، الذى كان يفكر باستغراق:

- حسن، تعرف اننا سنأخذ المال من الناس الآخرين المدينين أيضا لأبيك. انك تأخذ غداء رجل لتعمل افطار رجل آخر.

انك لا تدرك ذلك، على ما أظن؟

قال توم:

- نعم، أدرك، لكن أبى قرر أ ن يعطى عمتى ذلك المبلغ قبل أن يكون مديونا، وله الحق فى ذلك.

قال الخال جليج:

- احسنت صنعا يا فتى، دعنا نذهب لنرى اذا استطعنا العثور على الايصال.

قالت ماجى.

- انه فى حجرة أبى.

* * *

فصل ٢٢

توم يبحث عن وظيفة

مستر دين

لقد مرت الأيام وازداد مستر توليفر قوة، إلى أن استطاع الطبيب أخيراً أن يصرح بالأمل فى شفاء تام.

وبينما كان مستر توليفر يتحسن ببطء، كان قدره وحظه يتغيران بسرعة. ومع بداية الأسبوع الثانى من يناير، ظهرت اللافتات عن بيع أرضه وطاحونته، وبعدها فوراً تم البيع نفسه.

وبيعت الطاحونة والأرض لواكيم. وقام المالك الجديد بالتجوال فى ممتلكاته مع مستر جلنج ومستر دين: وبعد الزيارة ومناقشة الأمر مع هذين السيدين، قال واكيم لمسز توليفر، أنه إذا استرد زوجها صحته، فسيرحب بالاحتفاظ به كمدير لأعماله.

كان الصباح بارداً معتماً عندما شرع توم فى طريقه إلى سانت أوج لمقابلة خاله دين. لقد قرر أن خاله (زوج خالته) هو الشخص المناسب الذى يسأله النصح عن الحصول على وظيفة. فمستر دين كان لديه أعمال كبيرة، ولقد ارتفع فى عالم الأعمال بسرعة.. وذلك ما كان توم يريد أن يفعله.

وأثناء عبور توم الجسر الحجرى فوق نهر فلوس وداخلاً إلى سانت أوج، كان يفكر أنه سوف يشترى أرض والده وطاحونته ثانية عندما يصبح غنياً. وسيقوم بإجراء بعض التحسينات على المنزل ويعيش هناك ويقتنى ما يشاء من الجياد والكلاب.

واستيقظ من حلمه للمستقبل، على وعى فعلى للحاضر، عندما وصل لمكاتب دين وشركاه.

قال الكاتب:

- هذا يوم مستر دين فى البنك، مستر دين لا يحضر هنا أبداً فى أيام الخميس صباحاً.وكانت نبرته فيها احتقار لأن توم لم يعرف ذلك.

وفى البنك سمحوا لتوم بالدخول فى الحجرة الخاصة التى كان بها خاله. كان مستر دين أمام منضدة كبيرة يراجع الحسابات. ورفع ببصره عند دخول توم، ومد يده لتوم وقال:

ـ حسن يا توم، آمل ألا يكون هناك شيء جديد بالبيت. كيف حال والدك؟

قال توم:

ـ إنه أحسن كثيراً يا خالى، أريد أن أتحدث معك، إذا سمحت، عندما تكون غير مشغول.

قال مستر دين، ملتفتاً ثانية إلى محاسبيه:

ـ اجلس، اجلس.

واستمر يتطلع على حساباته مع كاتبه لمدة نصف ساعة، وبدأ توم يتساءل ترى هل يجب عليه أن يجلس بهذه الكيفية إلى أن ينهى البنك يومه. هل سيعطيه خاله مكاناً فى البنك؟ سيكون عملاً غبياً أن يجلس إلى الأبد يستمع لصوت الساعة المرتفع تيك ـ توك، تيك ـ توك. إنه يفضل طريقة أخرى للحصول على المال.

وأخيراً أتيحت فرصة، أخذ خاله قلماً وكتب شيئاً ما فى نهاية الصفحة، وقال:

ـ إذهب الآن إلى مستر تورى يا مستر سبنسر من فضلك.

وبدأ صوت الساعة يقل ارتفاعاً فجأة فى أذنى توم.

وقال مستر دين ملتفتاً قليلاً نحو توم:

ـحسن يا توم ما هو العمل يا إبنى؟ ما هو العمل؟

قال توم أحمر الوجه لكن متحدثاً بنبرة بها نوع من الاستقلال المتعالى:

ـ آمل أن تعذرنى لازعاجك يا خالى، لكنى أعتقد أنك أفضل شخص لاسداء النصح لى فيما يجب عمله.

قال مستر دين، ناظراً إليه بانتباه جديد:

ـ آه، دعنا نسمع.

قال توم:

ـ أريد الحصول على وظيفة، يا خالى، لكى أكسب بعض النقود.

قال مستر دين:

ـ وظيفة؟

واستند على كرسيه وسأله:

ـ حسن ـ دعنى أفكر ـ كم عمرك؟

قال توم، آملاً أن يلاحظ خاله ذقنه النابته:

ـ أنا تقريباً سبعة عشر.

- حسن الناس لا يحصلون على كثير من المال فى أى شىء عندما يكونوا فى السابعة عشرة فقط. مع أنك قد حصلت على كثير من التعليم، وأظن أنك جيد فى الحسابات. هل تفهم الحسابات؟

قال توم برعشة خفيفة فى صوته:

- لا، لكن مستر ستيلنج يقول أن خطّى جميل. هذا هو نموذج من خطى.

ووضع على المنضدة قطعة من الورق.

- آه! هذا جميل، هذا جميل، لكن كما ترى، أجمل خط فى الدنيا لن يعطيك مكاناً أفضل من كاتب ناسخ، إلاّ إذا كنت تعرف شيئاً عن الحسابات، فكتّاب النسخ رخيصون جداً.

قال توم:

- أريد أن أدخل بعض الأعمال حيث أستطيع الوصول بسرعة... رجل أعمال حيث أرعى أشياء... حيث أحصل على ما يجزى إذا عملت بتفان. وإذا لم أعمل جيداً، لا أحصل على شىء. أريد أن أساعد أمى وأختى.

قال مستر دين:

- آه، أيها الشاب، هذا ليس بالشىء السهل كما يبدو.

قال توم:

- لكن ألم تصل أنت بهذه الطريقة يا خالى؟ أقصد ألم ترتق من مكان إلى آخر لأنك تفوقت وعملت باجتهاد.

قال مستر دين باسطاً نفسه قليلاً فى كرسيه:

- نعم، نعم، لكن إذا كنت قد حققت نجاحات يا سيدى، فذلك لأنى أهلّت نفسى لذلك أذا كنت تريد أن تنساب فى حفرة مستديرة، فما عليك إلا أن تصنع كرة من نفسك.. هذا هو الأمر.

قال توم:

- حسن يا خالى، وهذا ما أود أن أفعله. ألا أستطيع السير فى نفس الطريق؟

قال مستر دين، متطلّعاً إلى توم فى تفكير تام:

- فى نفس الطريق؟ ذلك يعتمد على أشياء كثيرة. يعتمد على نوعية خامتك، ويعتمد على أى نوع من التدريب قد اكتسبته. وذلك ما أنت فيه سيء الحظ. فوالدك المسكين لم يختر التعليم المناسب لك. فاللغة اللاتينية لا فائدة لك منها.

قال توم:

- لا. لكنى لا أرى سبباً تعيقنى اللغة اللاتينية من أجله.

فسأنساها كلها قريباً. كان من واجبى أن أحصل دروسى فى المدرسة لكنى دائماً كنت أعرف أنها لن تفيدنى فيما بعد،

فأجاب مستر دين:

ـ حسن، ذلك لا يغيّر ما كنت سأقوله. إن لغتك اللاتينية سوف تذبل منك، لكنك ستصبح مجرد عصا جرداء بعد ذلك. ماذا تعرف؟ أنت لا تعرف شيئاً عن الحسابات... لا شيء إطلاقاً. وعليك أن تبدأ من الصفر. يجب أن أخبرك، إذا نويت أن تصل فى هذه الحياة فلا فائدة من نسيان التعليم الذى كان يدفع والدك من أجله الكثير، إلاّ إذا أعطيت نفسك تعليماً جديداً.

زم توم شفتيه بشدة. وشعر وكأن الدموع تنفطر منه، لكنه لن يكون رجلاً!

واستمر مستر دين قائلاً:

تريدنى أن أساعدك على إيجاد وظيفة؟ حسن، أنا راغب فى أن أفعل شيئاً لك.

فحاول توم أن يتكلم لكن مستر دين رفع يده، وقال:

ـ اسمع ما يجب أن أقوله. إنك لا تريد أن تكون كاتباً ناسخاً. ولا تريد أن تقف خلف مكتبك وتحملق في الحبر والورق كل يوم. لا!

أفضل فرصة لك الآن هى أن تأخذ مكاناً فى المستودعات بجانب النهر حيث تفريغ السفن. سوف تتعلم رائحة الأمور هناك... لكنك لن تحب ذلك، على ما أظن؟ فستضطر للوقوف في العراء فى الجو البارد والممطر، وتقابل من يسيئون معاملتك فى أشخاص غلاظ، وأنت شخص رقيق مهذّب على ذلك، أليس كذلك؟

وسكت مستر دين ونظر بقسوة إلى توم.

قال توم:

- سأفعل أفضل ما هو بالنسبة لى فى النهاية يا سيدى. ولا يهمنى كم يكون بغيضاً. ومن الأفضل أن أبدأ فى تعلم المحاسبة فوراً، أليس كذلك، يا خالى؟

قال مستر دين:

- أفضل شيء يا توم، أفضل شيء! هذه هى الروح المطلوبة. أنا لا أرفض مساعدة أى شخص إذا صمموا هم على مساعدة أنفسهم

سألت ماجى، واضعة ذراعها عبر ذراع توم أثناء ما كان يدفئ نفسه بجوار نار المطبخ:

- ماذا قال لك الخال دين؟ هل قال لك أنه سيعطيك وظيفة؟

قال توم:

- أبداً إنه لا يستطيع أن يقدم لى مكاناً صالحاً ومفيداً.وقال أننى لا زلت صغيراً.

- لكن ألم يتحدث بحنان يا توم؟

أجاب توم:

- قال يجب أن أبدأ فى تعلم المحاسبة وهذه الأشياء، يبدو أنه يظن أننى عديم الجدوى.

قالت ماجى:

- محاسبة؟ أوه، أستطيع أن أعلمك ذلك. لقد تعلمت ذلك مع لوسى بالمدرسة.

فصل ٢٣

شيء مكتوب في الإنجيل

مستر توليفر ينهض

مر شهران، وأصبح مستر توليفر الآن قوياً ليغادر الفراش. وجلس يستريح بعدما ارتدى ملابسه. وكانت ماجي وتوم ينتظران، عندما دخل لوق وسأل إذا كان يساعد السيد على نزول السلم.

قال مستر توليفر:

- نعم، نعم يا لوق، لكن انتظر قليلاً... اجلس وأشار بعصاته نحو الكرسي، وقال:

- كيف حال الماء الآن، إيه يا لوق؟ لا مزيد من المشاكل مع ديكس. إيه؟

ـ لا يا سيدى، على ما يرام.

قال توم:

لقد مضى وقت طويل حينما حدثت تلك المشاجرة مع ديكس يا أبى. أذكر لك حديثك عنها قبل ذهابى إلى المدرسة عند مستر ستيلنج. وظلت بالمدرسة ثلاث سنوات، هل تذكر؟

استند مستر توليفر على كرسيه. وفقد وجهه نظرة الطفولة عند اندفاع موجة من الذكريات الجديدة إلى ذهنه، وقال بعد دقيقة أو اثنين:

ـ نعم، نعم. لقد دفعت كثيراً من المال. لقد قررت أن يحصل ابني على تعليم جيد. فأنا لم أحصل على أى تعليم وأشعر بنقصه. إذا كان واكيم...

وتوقف. جلبت فكرة واكيم ذكرى جديدة إلى ذهنه. وبدأ يتحسس فى جيب معطفه. ثم استدار إلى توم وقال بطريقته الحادة القديمة:

أين وضعوا خطاب جور؟

قال توم وهو يعطيه له:

ـ هل تعرف ما جاء بالخطاب، يا أبى؟

قال مستر توليفر غاضباً بعض الشيء:

- طبعاً أعرف، وهذا لا يهم. إذا لم يستطع فورلى أخذ الملكية، فأى شخص يستطيع. لكن يجب أن أقابل جور بخصوص ذلك. انه يتوقعنى. أخبرهم أن يعّدوا لى الجواد

فصاحت ماجي:

- لا يا أبى العزيز. هذا مضى عليه زمن طويل. كل شيء قد تغير.

فتطلع إليهم مستر توليفر مستفسراً

قال توم:

نعم يا أبى، كل شيء قد تم البت فيه حالياً بخصوص الطاحونة والأرض والديون.

قال لوق:

- كان لابد أن تدفع للجميع إذا كان فى مقدورك يا سيدى. ذلك ما قلته للسيد توم.

مستر توليفر يعد بالتعديل

قال مستر توليفر:

ـ أدفع للجميع؟ كان لابد أن أدفع للجميع؟ لماذا... هل باعونى وأعلنوا إفلاسى؟

قالت ماجى:

ـ أوه يا أبى، يا أبى الحبيب، سيدفع توم لهم جميعاً. إنه يقول ذلك، عندما يصبح رجلاً.

فرأت شفتى أبيها ترتعشان، فقال وكان صوته يرتعش أيضاً:

ـ نعم يا ابنتى الصغيرة، لكننى لن أعيش قدر ما عشت.

قال توم:

ـ ربما ستعيش لترانى أدفع لهم جميعاً يا أبى.

فرفع والده بصره إليه، وقال:

ـ إنك سبعة عشر فقط يا توم. إنه كفاح عسير بالنسبة لك... لكنك لا يجب أن تلوم والدك. الأوغاد كانوا أكثر براعة بالنسبة له.

وسكت، ثم كرر بهدوء:

ـ إذن لقد أعلنوا افلاسى؟

قالت ماجى:

- لا يجب أن تندهش لترى الحجرة تحت تبدو خاوية. لكن لا يزال كرسيك ومكتبك كما هما، لم يذهبا.

قال مستر توليفر:

- هيا نذهب. ساعدنى على النزول يا لوق.

وتوقف عند باب حجرة الجلوس وتطلع إلى كل الأماكن الخاوية، التى كانت بالنسبة له مملوءة بظلال الأشياء الراحلة... الرفاق اليوميين لعمره

قال ببطء، متحركاً نحو كرسيه:

- آه، لقد باعونى.

وجلس وتتطلع من حوله ثانية، وقال:

- لقد تركوا الإنجيل الكبير. كل شيء مكتوب فيه... عندما ولدت... وتزوجت... احضره لى يا توم.

دخلت مسز توليفر الحجرة، لكنها وقفت فى دهشة صامتة لتجد زوجها قد نزل بالفعل، والانجيل الكبير مفتوحاً أمامه.

قال:

- آه. مارجريت بيتون... تلك هى أمى... إليزابيث دودسن... إنها ثمانى عشرة سنة منذ تزوجتها.

قالت مسز توليفر، ذاهبة لجانبه وناظرة للصفحة:

- ثماني عشرة سنة فى مارس الماضى

ثبت زوجها عينيه على وجهها، وقال:

- بيزى المسكينة، كنت فتاة جميلة عندئذ... كلهم قالوا ذلك... وظللت جميلة، لكن هذه الورطة قد جعلتك تبدين أكبر. لاتكرهينى لذلك.

قالت مسز توليفر المسكينة:

- طبعاً لا، لكنى لم أفكر أبداً أنها ستكون بهذا السوء.

قال مستر توليفر:

- لا تقولى ذلك يا بيزى. إذا كان هناك أى شىء يمكننى عمله لصالحك، أقسم أن أفعله، وأفعل أى تعديل.

- إذن، أن نبقى هنا حتى أكون قرب اخواتى، لكنك لن ترضى لأنك تكره واكيم جداً

قال توم بعنف:

- أمى، هذا ليس الوقت للتحدث عن ذلك:

قال مستر توليفر:

- دعها تقول ما تريد. قولى يا بيزى.

الطاحونة والأرض كلها ملك واكيم. إنه يقول أنك يمكنك أن تظل هنا وأنه سيدفع لك ثلاثين شلناً فى الأسبوع لإدارة العمل. إلى أين سنذهب؟ لابد أن نذهب إلى أحد الأكواخ بالقرية... وكل ذلك لأنك تكره واكيم!

غاص مستر توليفر فى كرسيه مرتعشاً، وقال أخيراً فى صوت منخفض:

- فلتفعلى فىّ ما تشائين يا بيزى. إنه أنا الذى جعلتكم فقراء، لقد كانت هذه الدنيا صعبة جداً على.

وظل فى تفكير صامت لدقائق عديدة. ثم تطلع إلى أعلى وقال بحدّة:

- توم! توم! اجلس هنا. لدى شيء لنكتبه فى الإنجيل.

توم يكتب وعداً

تطلع الثلاثة الآخرون إلى مستر توليفر متسائلين ماذا يعنى ذلك. وبدأ يتكلم ببطء، ناظراً فى البداية إلى زوجته:

- لقد عزمت يا بيزى، وأقسم لك أن أفعل ما فى وسعى للقيام بالتعديل، وسأفعل. سأقف فى المكان القديم، وسأخدم واكيم

وأكون تحت إمرته، وسأخدمه مثل رجل شريف.سأخدمه بشرف وكأنه ليس وغداً. أنا رجل شريف... رغم أنى سأعلق رأسى فى العار بقية عمرى.

وصمت وتتطلع إلى الأرض. ثم رفع رأسه فجأة، وقال فى صوت أعلى وأعمق:

- لكنى لن أصفح عنه! لن أصفح عنه! أتمنى أن يعاقب بالعار حتى يود إبنه الذى من صلبه أن ينساه! وعليك أن تذكر هذا يا توم... يجب ألا تسامحه أنت أيضاً، إذا كنت إبنى. ربما يأتى الوقت الذى تجعله يحس... يحس بعض العار الذى أحس أنا به الآن. والآن أكتب، أكتب ذلك فى الإنجيل.

قالت ماجى، غائصة إلى أسفل بجانب ركبتيه شاحبة مرتعشة:

- أوه ما هذا يا أبى؟ إنه من الرذائل أن تلعن وتحمل الكره!

قال والدها بعنف:

- إنه ليس رذيلة، أقـــول لك. إنه لرذيلة أن ينجح هؤلاء الأوغاد. إن الشيطان يساعدهم. أفضل ما أقول لك يا توم، أكتب

- ماذا أكتب؟

- أكتب أن أباك، ادوارد توليفر، يوافق على العمل من أجل جون واكيم، الرجل الذى قد حطّمه، لأنه قد وعد زوجته بتعديل وضعها، ولأنه يريد أن يموت فى المكان القديم حيث ولد وحيث ولد أبوه. ثم اكتب: «لكنى لا أسامح واكيم، بالرغم من أنى سأخدمه بشرف، وأملى أن تأتيه مصيبة» أكتب ذلك!

كان هناك صمت كصمت الموت أثناء تحرك قلم توم فوق الورق. وكانت مسز توليفر تحملق بعينين خائفتين وماجى ترتعش مثل ورقة شجر.

قال مستر توليفر:

- والآن دعنى أسمع ما كتبت.

وقرأ توم بصوت عال وببطء.

قال مستر توليفر:

- والآن أكتب... أكتب: «أنا توماس توليفر، ابنه، سوف أتذكّر ما قد فعله واكيم فى أبى. وسأجعله يعانى هو وأسرته، إذا سنحت الفرصة.» ووقع إسمك «توماس توليفر»

فصاحت ماجى، حابسة أنفاسها من الخوف:

ـ أوه، لا يا أبى. لا يجب أن تجعل توم يكتب ذلك

قال توم:

ـ اهدئى يا ماجى، سوف أكتب ذلك

فصل ٢٤

الأنوثة

أصبحت ماجى الآن فى بداية أعتاب الأنوثة الكاملة حينما يمتلئ العقل عادة بالآمال الجديدة، والأحلام الجديدة، والمباهج الجديدة، ومع ذلك كانت هذه المرحلة عظيمة التغيير أقسى فترة بالنسبة لها فى كل حياتها.

ففى الصدمة الأولى لأى مشكلة من السهل على الإنسان أن يكون شجاعاً، لأن الألم يعتبر إثارة تساعدنا على استنهاض قوتنا. أما اليأس الذى يتوعدنا فهو فى الحياة البطيئة التى تعقب ذلك، فى الوقت الذى يلاحق اليوم اليوم الآخر فى رتابة غير متوقعة.

والآن وصلت ماجى للوقت الذى تحتاج فيه إلى أعظم قوة. كان توم يذهب كل صباح إلى عمله فى شركة مستر دين،

وأصبح أكثر صمتاً فى الأوقات القصيرة التى يكون فيها بالبيت فى المساء، ولم يكن يفكر إلاَّ فى أحلامه... أحلامه لاصلاح الكارثة.

ولم تعد المسكينة مسز توليفر تعمل أبداً فى المنزل بالهدوء والرضا كما كانت فى الأيام الغابرة. وكيف تستطيع؟ وكل كنوزها قد أخذت منها، وكل آمالها الصغيرة وخططها قد سلبت. لماذا حدث هذا لها؟ كان من المثير للشفقة أن ترى هذه المرأة الجميلة في يوم ما تزداد ضموراً وتزداد ذبولاً بسبب الذهن والبدن اللذين لا يهدئان. كانت ترفض الجلوس والراحة. ولم تكن تدع ماجى تفعل أى من الأعمال الثقيلة أو القذرة، وتصبح غاضبة عندما تحاول ماجى أن تقوم بها بدلاً منها وتقول:

- أتركى ذلك يا حبيبتى، فيداك ستصبحان صلبتين إنه واجب أمك أن تقوم بذلك.

وكانت حالة أمها القلقة أقل ألماً بالنسبة لماجى عن يأس أبيها الصامت. وأصبحت هناك تجاعيد قاسية حول فمه، وعيناه المعتمتان لم تلمعا أبداً بأى شغف أو فرح. ولم يقض أى وقت أبداً بعيداً عن البيت. كان يعود مسرعاً من السوق، وكان يرفض كل الدعوات للبقاء والحديث، كما كان فى الأزمان القديمة، فى البيوت التى كان يزورها فى انهاء أعماله. ولم يستطع أن يوطد

أن يكون فيليب نفسه قد تغير بسبب حياته فى الخارج لعله قد أصبح مختلفا تماما، ولايريد فعلا أن يتحدث إليها الآن. ومع ذلك فوجهه قد تغير قليلا بشكل مدهش، أصبح فقط أكبر، وأكثر رجولة، نسخة من وجه الولد الشاحب ذى العينين الرماديتين والشعر المتموج الصبيانى، وكان هناك التشويه القديم لايقاظ الشفقة القديمة. وأحست ماجى أنها فعلا تحب أن تقول له بضع كلمات. ترى هل يتذكر كيف كان يحب عينيها، واستدارت قليلا نحو المرآة المربعة المعلقة على الحائط، ثم تفحصت نفسها ورفعت ما تقوم بخياطته.

وبعد بضع دقائق أخرى رأت فيليب ووالده عائدين فى الطريق كانت من أحب التمشيات لماجى هى إلى منطقة تدعى «الاعماق الحمراء»، التى تقع خلف التل جنوب طاحونة دور لكوت. كان الناس قديما يأخذون أحجار البناء من جانب التل هناك، لكنها الآن أصبحت مكسّوة بالأشجار. والعشب قد غطّى الأرض المكلومة. وغالبا ما كانت تجلس هناك فى حفرة معشبة تحت ظل شجرة متفرعة الأغصان.

وبعد أيام قليلة من زيارة فيليب واكيم إلى الطاحونة، كانت ماجى فى (الأعماق)، تستمتع فى هدوء بالهواء الطلق. وتطلعت

(٦- طاحونة على نهر فلوس)

كما كانت تقول لزوجها:

ابنتنا تغدو فتاة جميلة تماماً، أليس كذلك يا مستر توليفر؟

فكان الجواب:

- أعرف ماذا ستكون، لا شيء جديد علي. لكن مع الأسف أنها ليست بالشخصية العادية. وأخشى أن تُلْفَظ ولا يتزوجها أحد مناسب لها.

كانت شمائل ماجي العقلية والبدنية الجميلة تزيد من أحزانه.

فصل ٢٥

فى الأعماق الحمراء

ماجى ترى فيليب ثانية

كانت ماجى جالسة عند نافذة حجرة نومها عندما رأت مستر واكيم داخلاً الساحة كالمعتاد على ظهر جواده الأسود الفاتن. لكنه لم يكن بمفرده كالمعتاد، كان معه شخص آخر... شخص ما راكبا جوادا رماديا جميلا. انه فيليب واكيم. فرآها ورفع قبعته، وتطلع والده حوله بحدّه.

لم تنزل ماجى إلى الطابق السفلى، لأن مستر واكيم أحيانا يدخل ويتفحّص الحسابات، وشعرت أن المقابلة مع فيليب سوف تفقد كل متعتها فى حضور الوالدين. فى يوم ما، ربما ، ستلتقى به وسيتصافى، وستقول له أنها تذكر طيبته نحو توم، لكنهما لن يستطيعا أن يكونا أصدقاء مرة أخرى. وفكرت، علاوة على ذلك،

نفسه على حياته الجديدة. لقد جرح كبرياءه بكل ما قيل له. حتى الأيام التى كان واكيم يجىء فيها راكباً ومتجولاً فى الأرض ليستفسر عن سير العمل لم تكن بالنسبة له فى سواد أيام السوق تلك التى يقابل فيها الناس الذين ما زال مديناً لهم بالمال. وكان الآن موجهاً كل أفكاره ومجهوداته لهدف واحد... دفع تلك الديون. ورغم أن توم كان يكره يأس أبيه الصامت والحزن المخيم على البيت، إلا أنه كان يشارك أحاسيس أبيه بخصوص تسديد الديون. كان يحضر نقوده شهراً وراء شهر ويعطيها لأبيه ليضعها فى الصندوق الصفيح الشىء الوحيد الذى كان يجلب إشارة باهتة من السعادة فى عينى مستر توليفر.

لكن مستر توليفر لا زال يحتفظ بالشعور القديم نحو ابنته الصغيرة. كان يحتاج لحضورها، على الرغم من عدم ابتهاجه.

وفى امسيات كانت ماجى تأخذ خياطتها وتجلس على كرسى منخفض بجانب ركبة أبيها.

وأثناء انكبابها على خياطتها، كانت ماجى منظراً يسر الناظرين. وكانت حياتها الداخلية الجديدة لروحها تسطع على وجهها فى ضوء ناعم رقيق. وشعرت أمها بالتغير فيها، وكانت تتعجب أن ماجى تكبر بشكل جميل. وغدت مغرمة بابنتها الطويلة السمراء الفاتنة.

إلى ما فوقها من أغصان للأشجار العتيقة، وفكرت فى تلك الأطراف المتكسرة من الأغصان أنها سجل للعواصف الماضية التى تسببت فقط فى جعل الجذوع تصبح أكثر ارتفاعا.

وأثناء ما كانت عيناها لاتزال متّجهة إلى أعلى، أحسّت بظل يتحرك تلقى به شمس المساء على الممر المعشب أمامها كان فيليب واكيم هناك. وتقدم نحوها ومد يده.

قالت ماجى مبتسمة:

- لقد فاجأتنى، أنا لم التقى بأحد هنا أبداً. كيف يصدف أن تمشى هنا؟

قال فيليب:

- جئت لمقابلتك. أردت أن أراك . وانتظرت طويلا بالأمس على الضفة بالقرب من منزلكم لأراك اذا خرجت، لكنك لم تأتى أبدا. وذهبت اليوم ثانية، ورأيت الممر الذى مشيت فيه، وكنت على مرمى البصر منى. آملا ألاّ تكونى غاضبة منى.

قالت ماجى بجدية بسيطة:

- لا، أنا سعيدة أنك أتيت. أردت أن تسنح لى فرصة للحديث معك، لكنى لم أكن متأكدة أنك ستتذكرنا جيدا كما نتذكرك.

قال فيليب:

ـ أنا لا أستطيع أن أصدق أنك فكرت فيّ قدر ما فكرت فيك، عندما كنت غائبا، لقد عملت صورة لك كما كنت تبدو فى ذلك الصباح فى حجرة الدراسة عندما قلت أنك لن تنسينى.

سحب فيليب حقيبة صغيرة من جيبه وفتحها. كانت صورة قد رسمها فيليب لها وهى فى منزل مستر ستيلنج. رأت ماجى نفسها وهى تستند على المنضدة، وشعرها الأسود مسترسل خلف أذنيها، ناظرة فى الفضاء بعينين غريبتين، حالمتين.

قالت ماجى:

ـ أوه، لقد كنت فتاة صغيرة غريبة... وربما هكذا أنا الآن.

ثم أضافت بعد برهة قصيرة:

ـ هل أنا أشبه ما توقعتنى أن أكون؟

نظر فيليب فى عينيها، وقال بهدوء:

ـ لا يا ماجى، أنك أجمل بكثير مما كنت أتصور.

مشاكل

وقفت ماجى ومشت للامام عدة خطوات، ومشى فيليب بجانبها، مراقبا وجهها. وتركا مجموعة الأشجار وجاءا إلى حفرة

خضراء محاطة بشجيرات الورد البرية. فوقفت ساكنة ونظرت إلى فيليب، وقالت:

- أود لو استطعنا أن نكون أصدقاء، لكنى لا أستطيع الاحتفاظ بأى شيء اعتدت أن أحبه كما كنت صغيرة. لقد ذهبت الكتب القديمة، ولقد تغير توم... وأبى. لابد أن أفقد كل شيء كنت أهتم به عندما كنت طفلة .. وأنت أيضا. لهذا أردت أن أتكلم معك. وإذا تصرفت وكأنى قد نسيت كل شيء عنك، فلابد أن تفهم...

كان يوجد تعبير عميق من الألم على وجه فيليب الذى قال:

- أعرف. وأفهم ما تقصدين. لكن هل من الصواب التضحية بكل شيء لأحاسيس الناس الآخرين غير المعقولة؟ قالت ماجى بتفكير:

- لا أدرى، لكنى متأكدة تماما من أبى. لا أريد أن أفعل أى شيء قد يجعل حياة أبى أكثر تعاسة.

قال فيليب:

- هل حياته ستصبح أكثر تعاسة إذا تقابلنا من وقت لآخر؟

قالت ماجى:

- انه يشعر بحساسية شديدة نحو بعض الأمور. وأنا متأكدة أنه لن يحب ذلك. فهو غير سعيد على الإطلاق

قال فيليب:

- ولا أنا سعيد. فأنا غير سعيد بالمرة

فسألت ماجى برقة:

- لماذا؟

فأجاب:

- تعرفين أن بعض الأمور جميلة وطيبة، ونحن نتوق إليها، لكنى لا أستطيع الحصول عليها. هناك أمور اشتاق إليها، أمور لدى أناس آخرين.. فلن تكون لى أبداً فحياتى لن يكون فيها أشياء عظيمة أو جميلة، وأود الأ أعيش. ومع ذلك سأرضى بالحياة إذا سمحتى لى أن أراك أحيانا. ليس لى صديق آخر أستطيع أن أقول له كل شيء ... ولايوجد أحد يعبأ بى. وإذا امكننى فقط أن أراك أحيانا، إذا سمحتى لى أن أتحدث إليك قليلا، إذا أمكن أن نكون أصدقاء دائما فى القلب ونساعد بعضنا البعض... عندئذ سأكون سعيدا بالحياة.

قالت ماجى:

- لكن كيف آراك يا فيليب؟

- إذا سمحت لى أن أراك هنا أحيانا ، أمشي معك

هنا... ذلك لن يؤذى سعادة أى أحد، وسوف تحلّى حياتى وتجمليها، وإذا كانت هناك كراهية بين هؤلاء الذين ننتمى اليهم، الا يجب أن نحاول أن ننهيها بصداقتنا، وبتأثيرنا نشفى الجروح التى قد تكونت فى الماضى؟

كانت ماجى صامته، تقاوم القوى المعارضة فى عقلها، وقالت أخيرا، مستديرة وسائرة نحو الطريق التى جاءت منها:

- لا أستطيع أن أقول «نعم» أو «لا» لابد أن أنتظر حتى لا أخطىء فى قرارى.

- هل لى أن أحضر ثانية اذن ... غداً... أو بعد غد... أو الأسبوع القادم؟ قولى لى متى ، أو إذا لاتستطيعى أن تقولين، فأحضر قدرما استطيع حتى أراك.

قالت ماجى:

- أعتقد هذا، لأنى لاأستطيع أن أكون متأكدة متى أستطيع الحضور.

وأسرعت ماضيه، فقال فيليب عندما وصلا إلى نهاية الممر:

- لاترحلى مسرعة بعيدة عنى دون أن تقولى مع السلامة يا ماجى.

فتوقفت ، وقالت:

- مع السلامة.

ومدت يدها له. ووقفا ينظران لبعضهما البعض فى صمت، ويدها فى يده. ثم تطلعت حولها وقالت:

- أوه، الشمس تغرب ! لقد تأخرت كثيرا... مع السلامة.

* * *

فصل ٢٦

بعد سنة

توم يعمل بنجاح

لقد مرت سنة على ا لمشهد الذى وصفناه أخيراً، وفى تلك السنة كان توم ناجحاً جداً.

لابد أن يتوقع الإنسان من أن توم كان سينجح، فقوة إرادته، وكبرياؤه، ورغبته فى إصلاح الكوارث التى وقعت فى الماضى. كل ذلك منحه القوة للتغلب على كل الصعاب. وكان مستر دين يراقبه عن كثب وبدأ يعقد آمالاً عالية عليه ويعتز بإلحاقه فى عمله حيث أظهر أنه شاب صغير لكنه مؤهل تماماً للنجاح.

وأدرك توم عاجلاً فضل مستر دين الحقيقى بإلحاقه فى المستودعات أولاً. فتعلم الكثير هناك، حتى أنه بعد فترة قصيرة،

ألحقت به مهمة شراء المواد المختلفة. وارتفع أجره، ولكن، أكثر من ذلك، سمح له بعقد بعض صفقات لنفسه.

واقترض من خاله جليج، مبلغاً صغيراً من المال الذى كبر بسرعة، وفكر أنه قد يكون قادراً قريباً فى استعادة الطاحونة القديمة.

قُبلة :

أنه بعد ظهر أحد الأيام الأولى من شهر أبريل. مشت ماجى بسرعة على طول الممر المؤدى إلى مكانها المحبوب هناك نظرة مستفسرة، تواقة فى عينيها أكثر عما كان فى شهر يونيو الماضى، كما كانت هناك ابتسامة صغيرة على شفتيها وكان لديها شيئاً ما مسلياً تقوله للمستمع المقصود.

وظهر المستمع فى الحال، وقالت ماجى:

- شكراً لك على إعارتى هذا الكتاب، لكنى لم أنهيه ولن أنهيه. إنى مصرّة على عدم قراءة أى مزيد من الكتب حيث تحصل الفتاة ذات الشعر الأصفر على كل السعادة.

فقال فيليب:

- ترى هل تفكر نفس التفكير إذا كنت...

قالت ماجى معترضة:

- فيليب، هذا ليس لطيف منك.. السبب أننى دائماً اهتم أكثر بالتعساء من ا لناس فى الكتب. إذا كانت ذات الشعر الأصفر بائسة، لكنت أحببتها أكثر، أنا دائماً أنحاز لجانب الشخص الذى يعانى فى القصص.

فسأل فيليب بشغف:

- إذن هل يمكنك... هل يمكنك أن تنحازى لرجل قد دمغه من الطفولة نوع خاص من المعاناة، رجل أنت بالنسبة له النجمة الساطعة الوحيدة فى حياته، الذى قد أحبك بكل ما فى الكلمة من معنى لدرجة أنه يشعر بكل السعادة إذا سمحت له أن يراك فى لحظات قليلة جداً..

وتوقف فيليب، فى خوف مفاجئ خشية أن يقطع اعترافه عليه هذه السعادة.. خوف احتفظ بحبه غير منطوق كل هذه الشهور الطويلة. كانت ماجى صامتة، وجلست فوق جذع شجرة ساقطة، وجلس فيليب بجانبها. وتجاسر وسأل سؤالاً آخر:

هل تحبيننى؟

التقت عيناها بعينيي فيليب المترقرقتين والجميلتين بالحب، وقالت:

- أعتقد لا أكاد أستطيع أن أحب أحداً أفضل.

وقبلته، تقريباً بالبساطة والهدوء مثلما فعلت عندما كانت في سن الثانية عشرة.

توم يبدو قاسياً:

كان هناك صوت بين الأغصان. فالتفتا فشاهدا توم.

فصاح فى احتقار حالما نهض فيليب:

- هل تسمى نفسك رجلاً «جنتلمان»!

فأجاب فيليب بهدوء:

- ماذا تقصد؟

- أقصد؟ قف بعيداً عنى.. وإلا ضربتك.. وأخبرتك ماذا أقصد. أقصد استغلالك حماقة فتاة صغيرة وتجرى لقاءات سرية معها. أقصد محاولتك جلب العار لعائلتى التى لها اسم طيب وشريف.

فصاح فيليب بعنف:

- أنا لم أفعل ذلك! أنا لا أنشد إلا سعادة أختك أنها عزيزة على أكثر منها عليك. إنى أحترمها أكثر مما تحترمها..

وأود أن أضحى بحياتى من أجلها.

نظر توم إليه بكراهية، وقال:

- هل تدّعى بأن لك أى حق أن تبوح لها بحبك.. حتى لو كنت زوجاً مناسباً لها؟ تعرف أن لا أباها ولا أباك سيوافقان مطلقاً على الزواج بينكما. ومع ذلك أنت...

فصاح فيليب:

- ألا تفهم ما أشعر به نحو أختك؟

فأجاب توم:

- ما أريدك أن تفهمه، أنك إذا تجاسرت وقمت بأقل محاولة للتقرّب منها، أو الكتابة لها، أو مواصلة أقل استحواز على عقلها، فلن يحميك بدنك البائس المشوّه؛ وسأضربك. وسأعرضك للاحتقار على الملأ.. ومن لن يضحك من فكرة انقلابك لمحب!

كان ممسكاً بذراع ماجى أثناء حديثه، وسحبها معه. وأخيراً، عندما ابتعدا عن المكان، سحبت ماجى يدها منه بمجهود عنيف، وانفجر غضبها قائلة: لا تعتقد أنى أطيعك لأنك على صواب يا توم! إني أزدرى المشاعر التى أبديتها فى حديثك لفيليب. وأكره إهاناتك له على تشوهه. لقد كنت لائماً ومزدرياً للناس الآخرين كل حياتك... لقد كنت دائماً متأكداً أكثر من اللازم من أنك على صواب. وهذا لأنك ليس لديك عقل يتسع ليرى أن هناك أى شيء أفضل من تصرفك ومن مقاصدك الخاصة المتدنّية. أنا أكرهك!

* * *

فصل ٢٧

انتصار صعب المنال

لقد مرت ثلاثة أسابيع. أنه شهر مايو، وطاحونة دورلكوت في أحلى لحظاتها في السنة كلها.

جاء توم توليفر للبيت أبكر قليلاً عن المعتاد في كل مساء، وأثناء عبوره فوق الجسر تطلع بالوجدان القديم في الجذور العميقة إلى المنزل المتين ذي الطوب الأحمر الذي كان يبدو دائماً مبهجاً جذاباً من الخارج، رغم أنه كان داخل الحجرات أجرد وكانت القلوب مكلومة، وعندما نظر إلى بيته، أصبحت خطوته الراسخة أسرع، وكان مرسوماً على طرف فمه مشروع ابتسامة

كان مستر توليفر في كرسيه ذي المساند، متعباً بعد ركوب طويل على متن جواده، وكانت ماجي منكبة على خياطتها،

وأمها كانت تعد الشاى. فتطلع جميعهم باندهاش عندما دخل.

قال والده:

- لماذا، ما الأمر يا توم؟ عدت أبكر من المعتاد.

- أوه، لا يوجد أكثر من عدم وجود أى شىء أقوم به، لذلك جئت، خير يا أمى!

وذهب لأمه وقبّلها... علامة مزاج طيب غير عادية له. لكنه لم يقل أى شىء لماجى.. ويكاد لم يتبادل أى كلمة أو نظرة بينه وبين ماجى خلال الأسابيع الثلاثة الماضية.

وقال توم عندما انتهوا من الشاى:

- أبى، هل تعرف بالضبط كم النقود الموجودة فى الصندوق الصفيح؟

قال مستر توليفر:

- فقط مائة وثلاثة وتسعون جنيهاً، لقد أحضرت نقوداً أقل فى الآونة الأخيرة، إن الشباب يحبّون التصرف فى نقودهم بطريقتهم الخاصة. لكنى لم أفعل ما كنت أحب مع نقودى عندما كنت فى سنك.

وكان يتكلم بخليط من الخوف وعدم الرضا.

فقال توم:

ـ هل أنت متأكد أن هذا هذا المبلغ يا أبى؟ أود ولو فيها إزعاج أن تحضر الصندوق الصفيح. أظن أن هناك خطأ.

فقال والده بحده:

ـ كيف أكون قد أخطأت، ولقد عددته أكثر من مرة، لكنى سأحضره لك إذا لم تكن تصدقنى.

كان مستر توليفر يحب أن يحضر الصندوق الصفيح ويقوم بعد النقود. إنه الشىء الوحيد فى حياته الحزينة الذى يبدو أنه يعطيه بعض السعادة.

قال توم عندما رأى أمه تستعد لحمل أدوات الشاى لإعادتها للمطبخ:

ـ لا تخرجى من الحجرة يا أمى.

فقالت مسز توليفر:

ـ ولا ماجى أيضاً؟ لابد من إعادة هذه الأشياء.

قال توم ببرود:

ـ يمكنها أن تفعل ما تشاء.

جاء توم إلى طرف المنضدة قرب أبيه عندما فتح الصندوق الصفيح، وسطع ضوء الغروب الأحمر على وجوههم، فأبان عن نظرة إرهاق حزينة فى وجه الأب، ونظرة فرح مختبئ فى وجه توم. وجلست الأم وماجى فى الطرف الآخر من المنضدة. بدت مسز توليفر صابرة هادئة، لا تتوقع شيئاً، لكن قلب ماجى كان ينبض بعنف.

أخذ مستر توليفر يعد النقود ويضعها بنظام فوق المنضدة. ثم حملق بحدة فى توم، وقال:

ـ ها هو، كما ترى، كنت محقاً.

وسكت، متطلعاً للنقود فى يأس، ثم قال:

ـ لكننا نريد أكثر من ثلاثمائة جنيه فوق ذلك قبل ما نستطيع دفع ديونى. سيستغرق توفيرها وقتاً طويلاً. لقد كان هذا العالم شاقاً جداً علىّ. لقد أخذ هذا المبلغ أربع سنوات لتوفيره، ولا أظن أننى سأعيش أربع سنوات أخرى.. يجب أن أثق فى أنك ستسددها..

ونظر فى وجه توم فى ريبة.

قال توم:

- لا يا أبى، سوف تعيش لترى كل ديونك مدفوعة. سوف تسدّدها بيدك.

كان فى صوته شىء أكثر من مجرد نبرة الأمل. وبدت وكأن صدمة كهربية مرت عبر مستر توليفر، واحتفظ بعينيه مثبتتين على توم بنظرة استفسار شغوفة.

وسكت توم قليلاً قبل أن يقول:

- منذ مدة أقرضنى خالى جليج مبلغاً بسيطاً لأتاجر به، ونجحت التجارة. نجحت جداً ولدى المبلغ الذى ستسدد به كل ديونك.

التفت ذراعى أمه حول عنقه حالما انتهت آخر كلماته، وقالت:

- أوه، يا ولدى، كنت أعرف أنك ستصحح كل شىء ثانية، عندما تصبح رجلاً.

لكن كان أبوه صامتاً.. كان مفعماً بالعاطفة فألجمته عن الكلام. ثم فجأة انفجر الرجل الأشيب فى تشنجات عالية. وأخيراً رفع بصره إلى زوجته وقال بصوت رقيق:

- بيزى، تعالِ وتقبلينى الآن، ابنك قد صحّح لك الوضع

فقبلته، وأمسك هو بيدها برهة، ثم عادت أفكاره إلى النقود.

وقال وهو يمسك النقود بأصابعه على المنضدة:

- يا ليتك قد أحضرت النقود لأنظر إليها، حتى يطمئن قلبى.

قال توم:

- سوف تراها غداً يا أبى، لقد رتب خالى دين اجتماع لكل من أنت مدين لهم غداً بالفندق، ولقد أمر بغداء لهم الساعة الثانية. وهناك إعلان عن ذلك فى الصحيفة يوم السبت.

فقال مستر توليفر وعينه تشع بالنصر:

- إذن واكيم يعلم بذلك! إنه يعلم، ولن أكون تحت إمرته بعد ذلك. أوه، واكيم سيكون سعيداً أن يكون له ولد مثل ولدى.. شاب مستقيم رائع..، بدلاً من ذلك المخلوق المشوه. سوف تنجح فى الحياة، يا ولدى، وربما سترى اليوم الذى يكون فيه واكيم وولده تحتك وأقل منك. صافحنى يا ولدى..

ثم قال فجأة:

- إنه لأمر عظيم عندما يستطيع الإنسان أن يفتخر بأن لديه ابناً صالحاً.

مضى الوقت على مستر توليفر دون أن يخلد للنوم فى تلك

الليلة، وعندما جاء النوم، كان مملوءاً بالأحلام القلقة. وفى الخامسة والنصف صباحاً أرعب مسز توليفر بجلوسه فى السرير مع صرخة.

فقالت زوجته:

- ما الأمر؟

فتطلع من حوله بطريقة عجيبة على جدران حجرة النوم.

فكررت مستفسرة:

- ما الأمر؟

- آه، كنت أحلم.. هل صرخت؟.. أعتقد أنى قبضت عليه بيدى.

* * *

فصل ٢٨

يوم الانتقام

واكيم

فى اليوم التالى، عندما كان مستر توليفر عند المائدة فى الفندق، كان يبدو كما لو أنه متعالياً دافئ القلب كما كان قديماً. وبعد الغداء ألقى خطبة بثباته القديم، متحدثاً عن «الرجال الشرفاء» و«الأوغاد»، والنصر الذى قد تحقق بالعمل الشاق وبمساعدة ابنه البار. وانتهت الحفلة بهدوء فى الساعة الخامسة.

ظل توم فى سانت أوج لقضاء بعض الأعمال، لكن مستر توليفر امتطى متن جواده ليذهب للبيت ويصف هذه الأحداث العظيمة لبيزى و«ابنته الصغيرة». كان يبدو فرحاً، لا بسبب الغداء الطيب، لكن بسبب الإحساس بالنصر. إنه لم يمش بجواده عبر

أى شارع خلفى اليوم، لكنه مر ببطء ورأسه مرفوعة فى الطريق الرئيسى كل الوقت حتى الجسر. لماذا لم يصادف واكيم فى طريقه؟ لقد ضايقه أنه لم يقابل واكيم، وهذه الخيبة البسيطة زرعت بذرة من الغضب فى عقله. ربما واكيم قد غادر البلدة اليوم بهدف تجنب مشاهدة أو سماع أى شىء عن الحدث الشريف. فكل شىء شريف لا يرضى واكيم، وفكر مستر توليفر:

- إذا قابلته الآن، فسوف أتطلع إليه فى وجهه، وربما لن يكون الوغد بارداً ومتأكداً من نفسه كعادته. وسيعرف قريباً أن الرجل الشريف لن يخدمه بعد الآن. لن يستخدم واكيم شرفى وأمانتى لملء جيبه، الممتلئ من قبل بالمكاسب غير الشريفة.

واقترب مستر توليفر من بوابة طاحونة دورلكوت، وهو مازال فى حالته العقلية الغاضبة. وعندما اقترب منها رأى شخصاً معروفاً تماماً على جواد أسود جميل. التقيا على بعد خمسين ياردة تقريباً من البوابة.

وقال واكيم فى نبرة أكثر حدة عن المعتاد:

- توليفر! ما هذا الغباء الذى فعلته، ناثراً تلك الكتل الجامدة من الأرض على الحقل العلوى، لكنكم أيها الرجال لن تتعلموا أبداً كيف تديرون مزرعة بشكل صحيح.

قال توليفر وكان حنقه يغلى فى داخله:

ـ أوه، فلتأت بشخص آخر لإدارة مزرعتك إذن!.. شخص آخر يسألك أن تعلّمه!

قال واكيم:

ـ إنك مخمور، على ما أظن.

قال توليفر.

ـ لا، لست مخموراً، فأنا لست فى حاجة لخمر ليساعدنى على أن أقرر ألاّ أخدم، بعد الآن، وغداً من الأوغاد.

قال واكيم:

ـ حسن جداً، يمكنك الرحيل غداً، لكن اسكت ودعنى أمر.

كان توليفر قد أدار جواده فى عرض الطريق حتى لا يستطيع واكيم المرور.

قال توليفر:

ـ لا، لن أدعك تمر. سأقول لك رأيى فيك أولاً. إنك وغد أكبر من أن توضع عنقك فى المشنقة! إنك...

ـ دعنى أمر، أيها الأحمق الغبى، وإلا سرت فوقك.

اندفع مستر توليفر إلى الأمام، رافعاً سوطه. فأصيب جواد واكيم بالفزع وألقى براكبه من فوق سرجه. وقبل أن ينهض، قفز توليفر من على جواده هو أيضاً. وكان منظر سقوط عدّوه القديم على الأرض وتحت رحمته قد سحبه لجنون الانتقام المنتصر. فهجم على واكيم وضربه بعنف بسوط جواده. فصاح واكيم طالباً النجدة، لكن لم يأت أحد. ويبدو أن غضبه المجنون أعطى توليفر قوة غير طبيعية. وأمسك بواكيم على الأرض وأخذ يضرب فيه.

وسمع صوت نسائى، ثم صرخة:

- أبى! أبى!

فتوقف الضرب.

وصاح توليفر:

- دعينى! انصرفى عنى.

تطلع المحامى فرأى ذراعى مستر توليفر تمسك بهما فتاة.

وصاحت ماجى، وهى مازالت ممسكة بذراعيه، بينما تقف مسز توليفر بجانبها فى صمت ترتعش من الخوف:

- أبى، تعالى ننصرف...

ثم لاحظت ماجى أن أباها بدأ يمسك بها ويستند عليها، وقال:

- أشعر بالإعياء.. بالإغماء، ساعديني يا بيزى. لقد أصابني ألم فى رأسي. ومشى ودخل ببطء، تساعده زوجته وابنته، وسقط على كرسيه. كان وجهه شاحباً شحوب الموت وكانت يده باردة.

قالت مسز توليفر:

لابد أن نحضر الطبيب.

فهمس قائلا:

- طبيب، لا، لا داعي للطبيب. إنها رأسي فقط... هذا كل ما فى الأمر. ساعداني للاستلقاء على السرير.

الموت:

كان توم متعباً من عمل اليوم، فسقط فى النوم فى الحال. وبدا له وكأنه قد دخل فراشه لتوه عندما أيقظته أمه فى الضوء الرمادى للصباح المبكر:

- ولدى، لابد أن تستيقظ الآن. لقد أرسلت للطبيب، ووالدك يريدك أنت وماجى لتحضرا إليه. لقد كان مريضاً جداً طوال الليل بألم فى رأسه. ثم فجأة قال لى:

- بيزى، احضرى الولد والبنت، أخبريهما أن يسرعا.

وصلت ماجى وتوم حجرة والدهما فى نفس اللحظة تقريباً. كان يراقبهما وتعبير الألم على وجهه. وكانت ماجى بجانب سريره أولاً، لكن نظرة والدها كانت تتوجه نحو توم، الذى جاء ووقف بجانبها.

- توم، يا ولدى، أعرف أنى لم أنهض ثانية... لقد كان هذا العالم صعباً علىّ، لكنك قد قمت بما استطعت لتصحيح الأوضاع. صافحنى مرة أخرى، يا ولدى، قبل أن أرحل عنكم.

أمسك كل من الأب والابن بيد الآخر لبرهة، وأكمل الأب كلامه لابنه:

- اعتنى بأمك.. وستحاول أن تعوضها، بكل استطاعتك، عن سوء حظّى.. واعتنى بابنتى الصغيرة...

وأدار الأب عينيه إلى ماجى بنظرة شغوفة، وقال:

- قبّلينى يا ماجى، ولا تحزنى يا ابنتى الصغيرة. سيكون هناك شخص يحبك ويقف من أجلك.. تعالى يا بيزى.. وابتعد بنظراته عنهم ورقد صامتاً لبضع دقائق. وكان نور الصباح يزداد وضوحاً وأمكنهم رؤية الوطأة تتجمع فى وجهه والقتامة فى عينيه، وهمس:

ـ لقد أخذت دورى، وضربته. وكان ذلك عادلاً ليس إلا، أنا لم أرد أى شىء ليس عادلاً.

قالت ماجى:

ـ لكن يا أبـى، يا أبى الحبـيب، إنك تسـامح... انك تسـامح كل شخص الآن؟

لم يحرك عينيه لينظر إليها، لكنه قال:

ـ لا يا ابنتى. لا أسامح الأوغاد.

وأصـبح صـوته أغلظ. وحـرك شـفـتـيـه مـرة وراء الأخـرى، محـاولاً الحديث.

ثم صدرت منه بعض كلمات متقطعة:

ـ هذا ... العالم... صعب جداً... رجل شريف... صعب...

وتوقف التنفس العالى الشاق. ثم سكون، وراحة.

* * *

فصل ٢٩

الفيضان

اليأس

بعد موت والدها، لم يكن من الممكن لماجى أن تظل طويلاً فى الطاحونة القديمة. ولتقابل أخاها كل يوم، ولتتحمل صمته المرير كان أكثر مما يستطيع قلبها أن يتحمله. وظلت هناك طالما شعرت أنها تستطيع مساعدة أمها على الاستقرار فى الحياة المتغيرة، لكنها لم تستطع عمل الكثير بالنسبة لها. وبعد بضعة أسابيع لا تحتمل، بدا فيها استهجان توم وغضبه يزدادان بدلاً من أن يقلا، قررت أخيراً الانتقال إلى سانت أوج إلى بيت مسز جاكين، الذى كان ابنها بوب صديقاً رائعاً فى طفولتهما.

وكان مستر واكيم لا يزال مريضاً جداً. وقد وصلها خطاب موجز من فيليب يحطم القلب، ثم صمت.

ولم يبد فى المستقبل أى أمل لها، ولا غفران. كان الأسبوع الثانى من شهر يونيو. وكانت ماجى جالسة فى حجرتها المنعزلة فى الطابق الأرضى لمنزل مسز جاكين، تتصارع مع أحزانها ومخاوفها. وكان الوقت بعد منتصف الليل، وكان المطر ينهمر بغزارة على النافذة،تدفع به الرياح بلا رحمة.

وفى الأسبوع السابق، كان هناك مطر دائم على الجزء العلوى من النهر. والآن وطوال اليومين الأخيرين لم يتوقف المطر أبداً على هذا الجزء الأدنى من النهر. وهز المسنّون رؤوسهم وتحدثوا عن ما شابه ذلك منذ ستين عاماً، عندما جلب طقس من نفس النوع فيضانات عظيمة اكتسحت الجسر وجرفته بعيداً وجلبت بؤساً عظيماً للبلدة. لكن صغار السن من الناس، الذين شاهدوا فيضانات صغيرة عديدة، ظنوا أن المسنّين كانوا حمقى. وأخذت مسز جاكين تتأسف على اتخاذها منزلاً بجانب النهر، لكن بوب رد عليها، بأن لكونهم بجانب النهر، فلديهم زوارق... الشىء الهام فى حالة الفيضان.

لكن الآن، كان كل من اللامبالين والخائفين نائمين فى أسرّتهم، حيث أن الوقت كان بعد منتصف الليل.. كلهم فيما عدا بعض السهارى الفرادى مثل ماجى التى كانت جالسة، غير

واعية بمرور الساعات، ولا تحاول الراحة، حيث لم تكن ترى راحة لها فى المستقبل.

وأخيراً وبصرخة يأس، ركعت على ركبتيها بجانب المنضدة. وانطلقت روحها إلى الرحمة التى لا ترى والتى ستكون معها حتى النهاية، وصرخت:

- أوه، ياالله، إذا كانت حياتى طويلة، فاجعلنى أحيا لأبارك وأُعين هؤلاء الذين أحبهم.

وشعرت بشىء غريب.. شعور بالبرد حول ركبتيها وقدميها. وكانت المياه تفيض من تحتها. فنهضت واقفة، كانت المياه تفيض تحت الباب المؤدى إلى الممر. إنّه فيضان!

يبدو أن العواطف العنيفة التى قد مزقتها خلال الساعات الأخيرة قد تركت هدوءاً عظيماً فيها. وبدون كلمة أو صرخة، أخذت شمعتها وهرعت إلى الطابق العلوى إلى حجرة بوب جاكين. كان الباب شبه مفتوح. فدخلت وهزته عند الكتف، قائلة:

- بوب، لقد جاء الفيضان! إنه فى المنزل! لابد أن تجهز المراكب.

وبينما كان بوب يرتدى ملابسه، هرعت هى إلى أسفل ثانية لترى إذا كانت المياه تزداد بسرعة. فرأت أن الدرجة الأخيرة من السلم كانت قد أصبحت تحت الماء. وأثناء تطلعها ضرب شيء ما النافذة بانفجار مرعب، وألقى بالزجاج والإطار الخشبى حطاماً للداخل. وجاءت المياه تتدفق للداخل.

فصاحت ماجى:

- لابد من الزورق! بوب، هيا أنزل وأحضر الزوارق!

وبدون لحظة خوف شقت طريقها عبر المياه، التى كانت ترتفع بسرعة إلى ركبتيها، وتسلقت من خلال النافذة وزحفت إلى الزورق. وجاء بوب مسرعاً وفى يده مصباح، وقال:

- أوه أن كلا الزورقين هنا!

وعندما صعد إلى الزورق الذى كانت ماجى فيه، قال:

- من العجيب أن هذا الحبل لم ينقطع.

وتسلق داخل الزورق الآخر وبدأ يفك الحبل... دون أن يفكر فى الخطر على ماجى، وقال:

- إن المياه ترتفع بسرعة شديدة، وأخشى أنها ستصل للطابق

العلوى بعد قليل. إن المنزل منخفض جداً. أود أن أحضر أمى وأختى داخل الزورق إذا استطعت... لكن ماذا ستفعلين؟

وأدار ضوء مصباحه على ماجى حيث كانت تقف هناك تحت المطر، وكان الماء يتدفق من شعرها الأسود.

لم يكن لماجى أية فرصة للإجابة، لاكتساح دفعة مياه جديدة جانب المنزل فسحبت كلا الزورقين إلى وسط النهر...

وفى اللحظات الأولى لم تشعر ماجى بشىء... ولم تفكر فى شىء. وبدت فجأة كأنها تنتقل من الحياة التى كانت ترهبها. وكانت مثل الموت بدون ألمه.

وكانت وحيدة فى الظلام مع الله.

* * *

فصل ٣٠

مياه الراحة

الظلام :

كان الأمر كله سريعاً جداً.. مثل الحلم تماماً، حتى أن الخيوط العادية للتفكير قد تمزقت. وغاصت ماجى فى مقعدها بالزورق، ولوقت طويل لم يكن لديها فكرة واضحة لوضعها.

وكان أول شيء أيقظها لوعيها هو إدراك أن الظلام كان مقسماً بخط باهت يفصل الستارة السوداء للسماء المعلقة عن امتداد الماء العظيم السفلى. لقد جرفت مع مياه الفيضان... تلك الكارثة التى اعتاد أن يتكلم عنها والدها.. ذلك الشيء جعل أحلام صباها مرعبة. ومع تلك الفكرة اندفعت إلى عقلها رؤية للبيت القديم وتوم وأمها.

فصرخت:

- أوه يا الله! أين أنا؟ ما هو الطريق للبيت؟ ترى ما الذى يحدث لهم بالطاحونة؟ لقد كاد الفيضان أن يدمرها ذات مرة. لابد أنهم فى خطر... في كرب... أمها وأخوها هناك حيث لايستطيع أحد يساعدهما! وامتلأت روحها بتلك الفكرة تماماً. ورأت الوجهين العزيزين يتطلعان للمساعدة فى الظلام، وليس هناك أحد.

أصبحت الآن تطفو على مياه هادئة.. ربما بعيداً فوق الحقول الغارقة بالماء. حاولت أن تنفذ ببصرها عبر جدار الظلام ليكون لديها فكرة عن مكانها.. لتجد بصيصاً من ا لمعرفة للطريق إلى بيتها القديم.

وأصبح يوجد ارتقاء تدريجي إلى أعلى للسماء ذات السحب، والظلام السفلى شكّل نفسه ببطء إلى أشكال ترى بشكل مبهم. نعم... لابد أنها فى الحقول. وكانت تلك هى قمم الأسوار والأسيجة. أين الطريق للنهر؟ نظرت خلفها. فرأت صفاً من الأشجار السوداء، ونظرت أمامها، فلا يوجد شيء، لذلك فالنهر كان أمامها. وبدأت تجدّف الزورق للأمام بطاقة الأمل المتيقظ. وبدا أول ضوء يتقدم بسرعة أكثر فازدادت حركتها. واستطاعت

رؤية الماشية المسكينة متجمعة فوق تل صغير سالمة فوق الفيضان.

بصيص من النور:

وجدّفت للأمام مع ازدياد بصيص النور. والتصقت ملابسها المبتلة من حولها وأخذت الرياح تضرب شعرها المبتل فى وجهها. لكنها لم تكن تشعر بأية أحاسيس بدنية، فيما عدا إحساس بالقوة منحته لها عاطفة قوية. ومع إحساس بالخطر واحتمال المخاطرة للأهل الأحباب بالبيبت القديم، كان هناك أحاسيس نصف واعٍ بالوئام مع أخيها. أى شجار، وأى غضب، وأى جحود يمكن أن يظل فى وجود كارثة عظيمة؟ شعرت ماجى بهذا بشكل مبهم، واكتسح حبها العظيم لأخيها كل آثار سوء الفهم القاسية، تاركاً فقط ذكريات اتحادهما المبكر.. الذكريات العميقة، الأساسية، التى لا تهتز.

لكن أن ترى تيار النهر بالقرب منها. لابد أن تكون هذه الكتلة المظلمة.. نعم، أنها سانت أوج وعرفت الآن أى طريق تبحث فيه عن الأشجار المعروفة.. ومن فوقها السقف القديم. لكن لم يكن هناك لون ولا شكل بعد، كل شيء كان باهتاً مبهماً.

وبدت القوة المطلوبة تأتى إليها أكثر وأكثر، وكأن حياتها

كانت قوة مختزنة ليتم تفريغها فى هذه الساعة، دون حاجة لأى وقت فى المستقبل.

لابد أن تأتى بزورقها داخل تيار نهر فلوس. وإلا فلن تستطيع المرور من منطقة نهير الريبل والاقتراب من المنزل.

هذه هى الفكرة التى خطرت لها.. لكنها قد تنجرف بعيداً ولا تستطيع أن تخرج زورقها من التيار ثانية. ولأول مرة، يصبح لديها فكرة واضحة عن الخطر، لكن لكن هناك لحظة شك. ودخلت فى التيار، واندفعت الآن بسرعة وبدون مجهود. وبدأت ترى بوضوح أكثر، مع اقتراب المسافة وازدياد الضوء، والأشياء التى تعرفها، التى يجب أن تكون الأشجار والأسطح المعروفة. وهذا التيار المندفع، الموحل... لابد أن تكون منطقة نهير الريبل من نهر فلوس التى تغيرت بشكل غريب.

الله أكبر! هناك كتل عائمة قد تندفع نحو زورقها وتنهى حياتها فوراً. ترى ما هى هذه الكتل؟

ها هى ماجى:

بدأ قلب ماجى ينبض فى رعب. وجلست عاجزة، واعية بشكل مبهم أنها كانت تطفو فوق نهر فلوس... وواعية بشكل أوضح بالكارثة الممكنة.

لكن الخوف زال... زال عندما وصلت لمستودعات سانت أوج. كان مصب الريبل من خلفها، وكان عليها الآن استخدام كل مهارتها وقوتها لتخرج الزورق من مجرى التيار. وبإصرار جديد بدأت تجدّف. لكن، حيث أن النهر اقترب من البحر، فالتيار أصبح أسرع، فحملها فيما وراء الجسر.

واستطاعت أن تسمع صيحات من النوافذ المطلة على النهر، وكأن الناس ينادون عليها. ولم تستطع أن تخرج الزورق تماماً من التيار إلا بعد أن مرت بالقرب من بلدة توفتون. ثم جدّفت بكل قوتها عبر الحقول الغارقة عائدة فى اتجاه الطاحونة. وأصبح نور الصباح أقوى الآن، وعندما اقتربت من حقول دورلكوت استطاعت أن ترى ألوان الأشجار... كم كانت غارقة فى المياه!.. وسطح الطاحونة.. أين هو؟ تلك الكتل الثقيلة تندفع نحو نهير الريبل.. ماذا هو المقصود من ذلك؟ لكن لا، إنه ليس المنزل.. فالمنزل صامد متين. والماء فوق النوافذ السفلية، لكنه لا يزال صامداً.. أم أنه محطم من الجهة الأخرى؟

وبفرح لاهث علمت أنها أصبحت هناك أخيراً.. فرح تغلّب على كل الكروب، واقتربت من واجهة المنزل. وفى البداية لم تسمع أى صوت، ولم تر أى شىء يتحرك. كان زورقها فى مستوى نوافذ الطابق العلوى. ونادت بأعلى ما فى صوتها:

- توم، أين أنت؟ أمى، أين أنت؟ ها هى ماجى.

وفى الحال. من نافذة الغرفة الصغيرة التى تحت السطح، سمعت صوت توم:

- من هذا؟ هل أحضرت زورقاً؟

- اننى ماجى يا توم. اننى ماجى أين أمى؟

- إنها ليست هنا. ذهبت إلى الخالة بوليت منذ يومين. سأحضر للنافذة التى تحت هذه.

قال توم بصوت عميق الاندهاش، عندما فتح النافذة التى فى مستوى الزورق:

- وحدك يا ماجى؟

- نعم يا توم. اصعد بسرعة. ألا يوجد أحد آخر؟

قال توم وهو يخطو داخل الزورق:

- لا. أخشى أن يكون لوق قد غرق. لقد جرفه الفيضان، على ما أعتقد، عندما سقط جزء من الطاحونة. لقد صرخت كثيراً عليه ولم أحصل على أية إجابة. دعينى أجدّف يا ماجى.

«ماجى!»:

انطلق توم، وأصبحا فى المياه العريضة.. وأصبح وجهاً لوجه

مع ماجى. ثم اندفع، أخيراً، المعنى الكامل لما قد حدث إلى عقله. جاء بقوة طاغية..إدراك مفاجئ لأعماق الحياة، التى كانت خارج نطاق فهمه.. هذا الفهم الذى كان يتخيل أنه واضح وثاقب. وكان الإدراك طاغياً لدرجة أنه لم يقدر على إلقاء أى سؤال. وجلسا صامتين يحملقان ليعضهما البعض، ماجى بعينين تتطلع لحياة شغوفة تنفذ من وجه مرهق مهزوم.. وتوم شاحباً بتواضع جديد. كان الفكر مشغولاً، رغم أن الشفاة كانت صامتة، ورغم أن توم لم يستطع أن يسأل أى سؤال، تخيل قصة المجهود المدهش الذى لم يجعله ممكناً إلا حبها.

وأخيراً تجمعت غشاوة فوق عينيه الزرقاوين، وعثرت الشفاة على كلمة يمكن أن تقال.. «ماجسى!» الصبا، القديم.

لم تستطع ماجى أن تجيب.. مجرد انتحابة عميقة، طويلة لتلك السعادة الغامضة، المدهشة التى تشبه الألم كثيراً.

جدّف توم بقوة غير منهكة وأصبح الزورق فى تيار النهر ثانية. لكن حمل لهما النهر خطراً جديداً تجاههما. لقد سقطت بعض العمدان الخشبية والآلات من إحدى المستودعات التى على واجهة النهر، وكانت تطفو منها قطعاً ضخمة على السطح. وأصبحت الشمس تشرق الآن والفيضان الرمادى ينتشر فى

وضوح مرعب من حولهما. وفى وضوح مرعب اندفعت الكتل تشق طريقها مسرعة ومهددة.

ولاحظت مجموعة كبيرة من الرجال فى مركب قرب المنازل خطرهما فصاحوا:

- اخرجا من التيار!

لكن ذلك لا يمكن عمله في الحال. ونظر توم حوله، فرأى الموت يندفع نحوهما. أشياء ضخمة، متكتلة سوياً بواسطة المياه المتدفقة، فصنعت حاجزاً واحداً عريضاً عبر المجرى.

فقال توم بصوت غائر:

- إنه قادم يا ماجى!

وأخذها بين ذراعيه.

وفى اللحظة التالية لم يعد الزورق له وجود على الماء... والحاجز الضخم كان موغلاً فى السرعة من فوقه فى انتصار مرعب.

وبعدها ظهر قعر الزورق ثانية، ثم ظهر الزورق نفسه ثانية... لكن الأخ وأخته قد رحلا إلى أسفل متلاحمين سوياً، لن ينفصلا

أبداً، يعيشان ثانية فى لحظة كمال واحدة عبر الأيام عندما كانا يمسكان كلٌ بيد الآخر الصغيرة فى حب، يطوفان حول الحقول المزهرة سوياً.

* * *

الفهرس

مقدمة ٧
فصل ١ طاحونة دورلكوت ١١
فصل ٢ مستر توليفر يقرر بخصوص توم ١٣
فصل ٣ مستروبلى يقدم النصيحة بخصوص المدرسة ١٩
فصل ٤ توقع حضور توم ٢٤
فصل ٥ توم يأتى للبيت ٢٨
فصل ٦ الخالات والأخوال يأتون ٣٨
فصل ٧ دخول الخالاتِ وأزواجهن ٤١
فصل ٨ مستر توليفر يظهر قوته العقلية ٥٤
فصل ٩ مستر توليفر يظهر جانبه الأضعف ٦٠
فصل ١٠ توم عند منزل مستر ستيلنج ٦٧
فصل ١١ ماجى تزور توم ٧٢
فصل ١٢ عطلة الكريسماس ٨١

فصل ١٣ زميل المدرسة الجديد ٨٦
فصل ١٤ توم وفيليب ٩٢
فصل ١٥ زيارة ماجى الثانية ٩٧
فصل ١٦ نهاية المشاجرة ١٠٤
فصل ١٧ فيليب وماجى ١٠٧
فصل ١٨ نهاية الطفولة ١١٢
فصل ١٩ ماذا قد حدث ١١٨
فصل ٢٠ كنوز مسز توليفر ١٢٤
فصل ٢١ مجلس العائلة ١٢٩
فصل ٢٢ توم يبحث عن وظيفة ١٤٠
فصل ٢٣ شيء مكتوب فى الإنجيل ١٤٩
فصل ٢٤ الأنوثة ١٥٩
فصل ٢٥ فى الأعماق الحمراء ١٦٣
فصل ٢٦ بعد سنة ١٧١
فصل ٢٧ انتصار صعب المنال ١٧٧
فصل ٢٨ يوم الانتقام ١٨٤
فصل ٢٩ الفيضان ١٩١
فصل ٣٠ مياه الراحة ١٩٦

طاحونة على نهر فلوصى

رقم الإيداع ١٥٢٤٥ / ٢٠٠٢

I.S.B.N 977-01-8102- 1

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

لقد أدركنا منذ البداية أن تكوين ثقافة المجتمع تبدأ بتأصيل عادة القراءة، وحب المعرفة، وأن المعرفة وسيلتها الأساسية هى الكتاب، وأن الحق في القراءة يماثل تماماً الحق فى التعليم والحق فى الصحة.. بل الحق فى الحياة نفسها.

سوزان مبارك

١٠٠ قرش

06228753

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب